أبناء الظبية

رجُلٌ يعيش بمسمارٍ مغروس في رأسه.. وباءٌ يُصيبُ الأبنية لا البَشَر.. فتاةٌ نهمة تأكُل كل شيء، حتى الضوء والشِعر والجُدران.. قوسُ قَزَح يتصاعَد مِن مِدخَنةٍ صَدئة، وأرضٌ تَبتلع البيوت والشجر ببُطء؛ لينبتوا بالمقلوب في أرضٍ سُفلية، وفتاةٌ تصنع العرائسَ مِن الأكفان، ورجلٌ يرتدُّ طفلًا في غرفته كُلَّ ليلة... حكايةُ رجل لم يُغادر بيتَه حتى انتصف عُمره، وآخرُ لفظَه السِّجن فصار مُلتصِقًا بجدار منزله إلى الأبد، وأُخرى عثروا عليها وَسط الأسماك عِند الشاطئ وهي تُحدِّقُ في الشمس؛ فتلقفتها أحضان البيوت وصار لها عشرات الآباء...

بأداءٍ لُغويٍّ مُتقَنٍ ودالٍّ ومُوجَز ومُكثَّف وخالٍ تمامًا من العوائق اللُّغوية، ومن خلال أساليب سردية طازجة، ومُفارقات سَردية عجائبية مُدهشة ومُتوهِّجة وعوالم زئبقية مراوغة، كُلَّما ظننتَ أنك قد أمسكتَ بها مَنَحَتك دلالاتٍ بديلة تَصلُحُ للتأويل مراتٍ ومرات.. تُقدِّمُ لنا (أُلفت عاطف) خَلطةً أدبية مُكوَّنة من مجموعة قصصية ونُوفيلا؛ استطاعت فيهما بقلمٍ مسنُون - كَحَدِّ المُوسَى- أن تُحاورَ الأحلامَ وتَرصُد الهواجس، وتُطاردَ الكوابيسَ وتَنسجَ عوالمها الساحرة عن الأحلام وعن الحرب وعن الشّعر وعن البيوت..

(المستشار الثقافي/ الأستاذ عماد العادلي)

ألفت عاطف

روائية وقاصة وشاعرة مصرية، تخرجت في كلية الآداب؛ قسم علم النفس، وتخصّصت في دراسات الإبداع وتطبيقاته.

صدر لها ديوان شعر قصحى بعنوان (متلازمة السقوط من الجنة)، ومجموعة قصصية (الموت قبل الأخير)، وروايتان بعنوان (ولا تقربي هذه الشجرة) و(الظلام يَرى).

9 789778 721331

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

ألفت عاطف

أبناء الظبية

أبناء الظبية

وقصص أخرى

ألفت عاطف

أَبْنَاءُ الظَّبْيَة

(وقصص أخرى)

ألفت عاطف

أبناء الظبية
وقصص أخرى
- ألفت عاطف -
رقم الإيداع: 29497 / 2023
الترقيم الدولي: 978-977-8721-33-1

تدقيق لغوي: لخضر بن الزهرة
إخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
رسمة الغلاف: ألفت عاطف
تصميم الغلاف: أمنية محمد

دار الهالة للنشر والتوزيع
- جمهورية مصر العربية -

رئيس مجلس الإدارة / المدير العام: هالة البشبيشي
@Alhalapublishing
alhalapublishing@gmail.com
(+20) 1110161117

جميعُ حقوق الطَّبع والنَّشر محفوظةٌ للدار، ولا يحق لأي شخصٍ أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا: نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا؛ دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبِّر عن رأي كاتبها، ولا تُعبِّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

ألفت عاطف

أَبْنَاءُ الظَّبْيَة

(وقصص أخرى)

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

فهرس المجموعة

إهداء 5
القِسْمُ الأَوَّلُ: (المَدِينَةُ)..... 7
(1) (نظيفة، جميلة، متطورة)..... 9
(2) (اختفاء قسري)..... 17
(3) (كلهم بالداخل)..... 22
(4) (الناجون من الجنة)..... 25
القِسْمُ الثَّانِي: (البُيُوتُ)..... 29
(5) (كتاتونيا)..... 31
(6) (عندما تمرض البيوت)..... 36
(7) (الدَرَج)..... 41
(8) (ببراءة الأطفال وطموح الملائكة)..... 46
(1)..... 46
(2)..... 47
(3)..... 53
(9) (إعادة تدوير العالم)..... 54
القِسْمُ الثَّالِثُ: (الغُرْفَةُ المُغْلَقَةُ)..... 61
(10) (نكوص)..... 63
(11) (أبناء الظبية)..... 75
(1) عزيز..... 76
(2) نعمات..... 81
(3) عزيز..... 101
(4) آفرين..... 105
(5) جلال..... 116
(6) نعمات..... 121
(7) عزيز..... 131

إهداء

«بعد شهر من رحيلك، أدركت أنك تحولت إلى موسيقى..
حدَّثْتَني عبرها ورأيتُك بها وفيها..
ولأنني مصنوعةٌ من الكلمات والقصص،
عرفت أننا حينما نلتقي يوما ما، سنتحول معا إلى أغنية...
إليك يا بابا»

القِسْمُ الأَوَّلُ: (المَدِينَةُ)

في مدينةٍ مسقوفةٍ بالحديد
أمطارها إسمنت
وأرضها أسفلت
ماذا سيحل بالزهور..
وبجثثِ الموتى؟!

***

(تقرأ في هذا القسم)

(1) (نظيفة، جميلة، متطورة).....9
(2) (اختفاء قسري).....17
(3) (كلهم بالداخل).....22
(4) (الناجون من الجنة).....25

(1) (نظيفة، جميلة، متطورة)

لن يفلت مزاجُه من سطوةِ طقسٍ كهذا. القمرُ المؤطرُ بالنافذةِ المواجهة لفراشهِ يبدو محتضرا، صفارُهُ أشبهُ بجدرانِ بيوتِ عجائزِ الحارة، كالحٌ مبقع تلطخه ظلالُه، كما تلطخ جدرانهن بقايا الدخانِ والشحوم. عندما سقط في النوم.. لَحِقَهُ القمر وسقط فوق رأسه، ثم تدحرج مبتعدًا.

افتتاحيةٌ مناسبة لحلم كهذا...

الموتى يركضون على طريق صلاح سالم بما تبقى من أكفانِهم وجثامينِهم. تضرب الفوضى كلَّ شيء، فيضطرب السائقون وتتخبط السيارات. تنحرف سيارتُه عن الطريق، وتتدحرج نحو مقابرِ السيدة عائشة. تتخطى البوابة الحديدية لمدفنِ عائلتِه، ثم تسقطُ في العين وتستقر، وبعد دقائقٍ من الصمتِ والفزعِ والصدمة.. يستيقظ في فراشه.

كان ذلك الحلم هو أول ما خطر بباله فور تلقيه إخطارا من المحافظة، يقضي بوجوب إخلاء ونقل مدفن العائلة إلى (15 مايو) إخلاء؟!

بدت الكلمة غريبة ومقبضة. رواد مواقع التواصل الاجتماعي كانوا يتندرون بعبارة (طلعتو ميتين أبونا!)، لكن في تلك اللحظة لم تبدُ كدعابة مثيرة للضحك، بل ككابوس مثير للغثيان.

قِدم المدفن وموقعه الشعبي كانا سببًا في انفضاض جيل الأحفاد عنه، وتفضيلهم شراء مدافن جديدة ترقى إلى مستوى معيشتهم الحالي. مرت عليه أعوام طويلة دون زيارة واحدة. الأماكن أيضا تموت بموت ساكنيها أو بهجرهم، وهذا المكان ميت منذ عشرات السنين.

زيارة واحدة أخيرة تبقت قبل أن تسحقه المدينة وتفنيه. تجمع فيها عدد من رجال العائلة ليتموا مهمة نقل الرفات المقيتة. تظاهروا جميعا بالثبات قبل أن يفتحوا تلك البوابة بين عالمين. فتحوا المقبرة ونزلوا، ثم شرعوا في تفقد وحصر الراقدين فيها، لكن نظرة واحدة كانت كفيلة بزعزعة ثباتهم، نظرة لكفن مشدود وممتلئ وسط عشرات الأكفان المترهلة على رفات أصحابها. التفسير المنطقي الوحيد هو أنه لمتوفى حديث الدفن، إلا أن أحدًا لم يقرب المقبرة لعشرات الأعوام، والرائحة المكتومة للمكان -على الرغم من كراهتها- خالية من أي رائحة تشير إلى وجود جثمان حديث.

لم يجرؤ أحدٌ سواه على الاقتراب، فإن كان هذا جزء من المهمة الكريهة، فليتمها إذن في أسرع وقت ممكن، ليئد بعدها ذكرى هذا اليوم بأكمله وينساه إلى الأبد.

عندما قرب ضوء الهاتف من الوجه، وجده أقرب ما يكون لوجه أمه المتوفاة منذ عشرين عاما. لوهلة بدا له المنطق كلوحة بازل تفجرت وتناثرت قطعها تحت قدميه، وهو.. تهاوى فوقها وتناثر بدوره.

لا ينسكب الرجل إلا في حضن أمه أو حبيبته. لم يفلح الأمر مع حبيبته، وأمه غادرتهم في مقتبل حياته، لكن ها هي الآن أمامه، وقد تتمكن من تلقفه إن سقط، وهو ما حدث بالفعل. سقط جسده فاقدا الوعي، وواصل قلبه السقوط لأيام طويلة بعدها.

عجز الجميع عن المواصلة. أعادوا غلق المقبرة وحملوه بعيدًا ليفيق. اقترح أحدهم أن يجتمعوا مع عدد من شيوخ العائلة، لتلقي المشورة وربما الإجابات، وبالفعل كانت الإجابة جاهزة وبسيطة ومخبأه بعناية.

لقد ماتت في حادث أثناء رحلة مع زوجها إلى أمريكا، ولأن إجراءات السفر لا تتم بين يوم وليلة، تقضي القوانين هناك في الحالات المماثلة بحفظ الجثمان كيميائيا إلى حين إتمام عملية نقله إلى بلده بشكل لائق.

وبسبب صغر سن أبنائها والحالة النفسية السيئة للزوج والأقارب، وجدوا أنه ما من داعي للحديث عن الموضوع، المرأة ماتت ودُفِنت، ما أهمية أن يجهروا بحقيقة أنها محنَّطة!

خرج صامتا كما دخل. أحكم غلق شفتيه حتى لا يتسرب شيء من فيض الكلام في عقله. هو فيض لا مصبَّ له هنا. كان احتياجه للكلام معذّبًا وثقيلًا، لكنه لم يتخيل شخصًا واحدا يعرفه طرفا ثانيا في حديث كهذا، حتى من يجيدون الاستماع، والتعاطف والمواساة، كلهم غثاء كغثاء السيل. لو أن أمّه هنا! حتما ستكون الوحيدة القادرة على حمل ثقله واستيعاب فيضه وفك أحاجيه، لكنها...

لكنها هنا بالفعل!

سأله ابن خالته حينما لاحظ شروده:

«أنت بخير؟ هل تواظب على تناول دوائك؟»

«وهل تراني مجذوبا مشعثا يلاحق السيارات ويقذف العيال بالطوب يا ابن الـ...»

أسر بها في نفسه دون أن ينطق، ثم ابتسم وربت على كتفه قائلا:

«أنا بخير يا حبيبي، لا تقلق!»

...

تقرر أن يكون صباح اليوم التالي هو يوم الإخلاء. اتضح لهم أنهم أجلوه بلا سبب وجيه، مجرّد خوف طفولي تسبب في ضياع الوقت واستنزاف الطاقة بلا داعٍ، وهو.. لم يفكر كثيرًا قبل يغادرهم وينحرف عن الطريق المؤدي لشقته، ثم يسلك الآخر المؤدي إلى القرافة. لم يأبه بأن الوقت تجاوز منتصف الليل، بل وجد في ذلك فرصةً سانحة لتنفيذ فكرته العجيبة، وبثبات هش فتح المقبرة.. حمل جثمان أمه ووضعه في السيارة، ورحل!

عندما وصل إلى شارعه الهادئ في إحدى المدن الجديدة على أطراف الجيزة، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة، ولهذا لم يواجه صعوبة كبيرة في حمل الجثمان بعد تغطيته ببعض الملابس، والصعود به إلى شقته في الطابق الأول.

وضعها في سريره ثم ألقى بنفسه الثقيلة جوارها، ونام بعمق وراحة؛ لم يختبرهما منذ أعوام.

منذ ثلاثة أعوام وهو يعيش وحيدًا في تلك الشقة. لم يزره خلالها أحد سوى بضع مرات في شهوره الأولى، وبعدها انقطعت الزيارات. يغادر إلى عمله في السابعة صباحًا ويعود في السابعة مساءً ليأكل ما يقيم أوده ثم ينام، ولهذا كانت الشقة على الدوام غارقة في الفوضى والقذارة، حتى أن رائحة المطبخ المفتوح على الصالة بما فيه من صحون متسخة وقمامة متكدسة، كثيرًا ما أيقظته من نومه، واستقبلته عند عودته من العمل، واصطحبته إلى فراشه في المساء.

في هذا الصباح أقلقته رائحة الفنيك، لا يتذكّر أنه شمها منذ زمن. لطالما كرهها في طفولته، لكنها تحولت فيما بعد إلى محفز قوي لذكريات الطفولة، وبيته الدافئ القديم.

كانت أمه تستخدم الفنيك يوميًّا في تنظيف البلاط..

أمه!

جعلته الكلمة يفيق بالكامل في لحظة. نظر حوله فوجد الغرفة نظيفة مرتّبة كغرف الفنادق، مزيّنة بضوء حنون تسرب من شيش النافذة الموارب، لكنه كان في الفراش وحده، وأمه ليست موجودة!

قفز نحو باب الغرفة وتتبع الأصوات الحذرة الدخيلة على عزلته المعتادة، فأبصر أمه في المطبخ تخبز شيئا ما، وكل ما حولها براق تفوح منه رائحة المنظفات العطرة. عندما رأته أسرعت في وضع الأطباق على الطاولة، قبلته في جبهته وعينه ثم ملأت صحنه بالطعام وربتت على رأسه قائلة «كل يا حبيبي، شكلك تعبان!»

كانت الساعة السادسة صباحًا، لكنهما لم يغادرا الطاولة حتى حلول المساء. أعوام طويلة متخمة بالأحداث والفواجع والمشاعر المضطربة مرت أثناء غيابها، لم يتمكن من حكي تفاصيلها في وقت أقل، وبعد أن ألقى بكل أثقاله تحت قدميها، وشعر بخفة جديدة واسترخاء ورضا، أخرج هاتفه المحمول والتقط صورة سيلفي لكليهما وشاركها على صفحته على فيسبوك!

توقع أنها لن تفهم ما فعل، فشرح لها مطولا ماهية المحمول والإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي. بدا على ملامحها التركيز الشديد والاهتمام، ثم طلبت منه أن يسجل لها حسابًا خاصًّا على فيسبوك باسمها وصورتها الشخصية، وبالفعل، التقط صورةً مقرّبة لوجهها وسجَّل لها حسابًا جديدا!

في صباح نفس اليوم، عندما ذهب أبناء خالاته للقرافة ووجدوا الجثمان مفقودًا، لم يفهموا، ولم يفلحوا حتى في تخمين احتمالات، وبالتالي لم يخطرْ ببالهم قطّ ما حدث بالفعل رغم تغيُّبِ ابن خالتهم غير المبرَّر، لهذا صعقتهم الصَّدمة حينما شاهدوا الصورة التي شاركها، والإشارة التي تحيل إلى صفحة شخصية باسم أمه وصورة جثمانها.

ألهذه الدرجة من الجنون وصل؟ كيف تمكن من خداع الجميع؟ وكيف تركنا حاله تتدهور إلى هذا الحد؟

لكن المصيبة لم تقتصر على صورتيهما والحساب الجديد، بل واصلت التداعي بمشاركة منشور على صفحتها الشخصية،

متضمِّنًا صورةً من خرائط جوجل من مسقط رأسي لمحافظتي القاهرة والجيزة وقد كتب فوقها «مقبرة نظيفة، جميلة، متطورة».

وعلى الرغم من أن المنشور يكاد يكون بلا معنى، انتشر بسرعة عجيبة، بسبب مشاركته من قبل أحد المؤثرين المشهورين، وخلال ساعات كان الترند الأول على فيسبوك. شبهوا الشاب ببطلِ فيلم هيتشكوك الشهير وما فعله بجثة أمه، حتى صار هاشتاج الترند هو (هيتشكوك المصري).

أثناء الانتشار الجنوني للقصة تجمع رجالات العائلة أمام بابه يستجدوه ليفتح. حاولوا كسر الباب المصفَّح وأقفاله الفولاذية ولم يفلحوا، وبعد ما يقرب من الساعة، بدأت الشرطة محاولات اقتحام الشقة، وبالفعل نجحوا في تحطيم باب الشرفة والدخول.

كانت الشقة في حالة مزرية، الفوضى والذباب في كل مكان ورائحة المطبخ بما فيه من قمامة لا تطاق، وجدوا الجثمان على السرير، ووجدوه هو جالسًا على طاولة الطعام يعبث بشوكة في طبق فارغ.

تم القبض عليه والتحفظ على الجثة، وبدأت مباحث الإنترنت في إجراءات غلق حسابيهما على فيسبوك، لإنهاء حالة الهرج المتزايدة.

بسهولة شديدة اخترقوا حسابه وأغلقوه، لكن وعلى غير المتوقَّع فشلت كل محاولات غلق حسابها، بل إن منشورًا جديدًا تمت مشاركته في حينه.

أصدرت مباحث الإنترنت بيانًا صرحت فيه بأن الصفحة تمت قرصنتها، وناشدت الناس بتجاهل المنشورات أو التبليغ عنها إلى أن يتمكنوا من التوصل للفاعلين، لكن أحدًا لم يأبه بمناشداتهم.

في الساعة الثامنة من مساء اليوم التالي، ظهر على صفحتها منشورٌ جديد..

«مقبرة نظيفة جميلة متطورة».

لكنه تضمن هذه المرة فيديو عجيبًا؛ بدا وكأنه مشهد من فيلم أجنبي...

الموتى يركضون على طريق صلاح سالم بما تبقى من أكفانهم وجثامينهم. تضرب الفوضى كلَّ شيء، فيضطرب السائقون وتتخبط السيارات. تنحرف جميعها عن الطريق وتتدحرج نحو مقابر السيدة عائشة، تتخطى البوابات الحديدية للمدافن، ثم تسقط في القبور وتستقر.

بعد انتهاء المقطع استرجع مشاهدوه بسرعة بيان مباحث الإنترنت، طمأنوا أنفسهم بأن الحساب مقرصَن، لا شك إذن في أن علامة البث المباشر على الفيديو خدعةٌ سخيفة من أحدهم!

طبعًا خدعة..

وماذا يُحتَمَل أن تكون غير ذلك؟!

(2) (اختفاء قسري)

«أمام بيتنا بناية من تسعة طوابق، من رأسها تخرج مدخنة صدئة، ومن المدخنة يتصاعد قوس قزح!»

هكذا أخبَرَتهم ذات مساء، وبالطبع لم يصدقها أحد. الأهل، الأصدقاء، الجيران، بعضهم ضحك، وبعضهم وجدها حكاية سخيفة ووسيلة بائسة للفت النظر؛ لكن كلهم اجتمعوا على أن دخانًا كثيفًا أسود هو ما يخرج من المدخنة طوال الوقت. كانت هذه هي أول حكاية، وما تلا كان أكثر وأعجب.

كثيرًا ما رأيتها صدفة من خلال نوافذ شقتينا المتقابلتين، كانت تحدِّث نفسها طوال الوقت، وعندما سألتها ضحكَتْ وهمسَتْ في أذني: «بالطبع لا يا أحمق، أنا لا أتكلم مع نفسي، أنت فقط لا ترى».

مع الوقت؛ تعوَّد الجميع على تجاهل هذا الجانب من حياتها وحديثها، إلى أن فقدت هي حماستها في مشاركته مع أي منا. اقتنعوا بأنها تابت عن كذباتها الطفولية، وبدأت تنخرط في حياة الكبار. وبالفعل كان طريقها محفوفًا بنجاحات صغيرة وبُشريات مفرحة. تقطعه برويَّة المنتشي بكل لحظة، بخطوات أقرب ما تكون للرقص، ووجه ضاحك على الدوام.

وبعد عام أو أكثر، كان الجميع قد نسي كل حكاياتها، ولم يتبقَّ من الفتاة في مخيلاتهم سوى حضورها اللافت وابتساماتها

البهيجة؛ لكن نوافذ شقتينا المتقابلتين جعلتني على أتم العلم بأن شيئًا لم يتغيَّر في الحقيقة. لقد ظلَّت تتحدث مع نفسها خلف أي باب مغلَق، وكلَّما صادفتُها واقفة في الشرفة وحيدة، كنت أراها تحدق في المدخنة المنتصبة على رأس البناية المقابلة، تسرح فيها كالسكرانة، وعلى وجهها ابتسامة عريضة.

أظن أن تلك الصورة هي آخر ما أتذكره عنها قبل سفري. كانت أحوال البلاد مضطربة، مما جعل البحث عن فرصة خلف الحدود خيارًا له وجاهته لشاب طموح تمنيت أن أكونه.

مرَّت من الأعوام خمسة بحساب الطبيعة، وأضعاف كثيرة بحساب ما مرت به البلد في غيابي من تسارع مربك للأحداث.

لكنني عدت في النهاية، ووجدت كل ما وجده أمثالي من العائدين، ثم تناسيت فنسيت، واستدعيت كل ما تبقى من التفاصيل القديمة لاستحضار الألفة، ولبعث دفء الماضي في الحاضر، ومن ضمن ما حاولت تكرارَه تلصُّصي البريء عليها.

قضيت ساعات في تلكؤ مفتعَلٍ أمام النوافذ؛ باحثًا عن ظهورها اللطيف؛ لكنها لم تكن هناك، أو هكذا ظننت. بعد عدة أيام أدركت أنها نائمة معظم الوقت، في فراشها أو فراش أمها أو على أي مقعد؛ بل وأحيانًا على الأرض. في المرة الوحيدة التي رأيتها مستيقظة، كانت تتحرك بثقل في اتجاه باب الحمام، بظهر محنِيٍّ ويدين تتلمسان السند في الجدران وظهور المقاعد. لم أتأثر كثيرًا في الواقع، ظننت أنها تمر بوعكة صحية ستتجاوزها حتمًا في وقت

قريب، إلى أن خاضت بعض الجارات في الأمر صدفة، أثناء إحدى زيارات الجمعة التي لا تنقطع في شارعنا أبدًا. في ليلة الجمعة كل أسرة تكون في حال من اثنتين: إما أن يكونوا ضيوفًا أو مضيفين.

حكين في حسرة ما حدث لها خلال الأعوام الماضية، عندما بدأت في التردد على المشايخ والدجالين، ثم زيارة الأطباء النفسيين. كل يوم تغادر البيت رغمًا عن أهلها، وتهيم في الشوارع كالمسرنمة. مرات يجدها البعض ملقاة على رصيف، أو نائمة في مسجد، ومرات أخرى متورطة مع شيخ ما لم تنقده أجره. كان كل يوم بمثابة مأساة في حياتها وحياة أهل بيتها.

سرت الأحاديث عن طبيعتها الغريبة منذ الطفولة، قال البعض إنها مجنونة، وقال آخرون: ملبوسة، وعندما انكسرت حواجز الحياء والستر المحيطة ببيتهم، بدأ الناس يسألون بلا خجل. الفتاة منذ صغرها تتحدث مع نفسها، والكل رأى وسمع، بالتأكيد هي الآن تحتاج لعلاج.

إن كان عليها عفريت نصرفه، وإن كانت مريضةً نعالجها؛ لكن ما سمعوه حينها كان أكثرَ إثارة للعجب من كل ما ظنوا أنهم عرفوه سابقًا.

قال أهلها إنها منذ شهور تتردد على المشايخ، لا لتتخلص من عفاريتها القديمة؛ بل لتستعيدهم!

أسفرت كل زيارة من تلك عن مصيبة. ليس كل الناس طيبون في النهاية. كل منهم استغلها بطريقته، ولم يُصدِّقها أحد.

بدأت حياتها في الانهيار جزءًا بعد جزء. لم يسمح لها شرودها بالاستمرار في الدراسة، وصارت كآبتها وصمتها يستعصيان على احتمال أقرب الناس منها، حتى انصرف كل منهم إلى شؤونه. قضت الليالي تبكي وتصرخ وتنادي عليهم؛ أجل، على العفاريت. لماذا رحلوا؟ أين هم الآن؟ أين يمكن أن تبحث عنهم؟ ما الطريق؟ ما الطريقة؟

إلى أن وصل بها الأمر في النهاية إلى تقديم بلاغات في أقسام الشرطة. وصارت فضيحة تندَّر بها البعض على مواقع التواصل الاجتماعي؛ الفتاة التي تقدم بلاغات عن الاختفاء القسري للعفاريت. يكتبونها ويضحكون، ثم يردد الجيران النكات ويواصلون الضحك.

لم يتمكن أحد من الإبقاء عليها في المنزل، نوبات الهياج التي أصابتها لم يقدر أحد على السيطرة عليها، وفي النهاية تعوَّد الناس على تطوافها في الشوارع بملابس رثة وشعر مكشوف أشعث.

عيناها الزائغتان تتفلتان من أي محادثة محتملة، إلا إذا قامت هي بمبادرة أحد العابرين. تقترب وتهمس في أذنه عن مصيبة الاختفاء القسري لعفاريتها، عن اختطافهم وحبسهم في أماكن مجهولة؛ لكن بالطبع وكما هو متوقع، لم يعِرْ أيٌّ منهم اهتمامًا لما تقول. كان كلامها كله هذاء يمر على الآذان مرور صفير الهواء.

اختطاف؟ أي اختطاف هذا؟ ومن هذا الذي اختفى؟ العفاريت أصلًا لا وجود لهم!

حلت عليَّ كآبة غريبة بعد تلك الزيارة وهذا الحديث. صرت أقضي وقتًا أطول أمام النافذة، أقرأ أو أنهي بعض الأعمال على «اللابتوب»، وفي الوقت ذاته أواصل هوايتي القديمة في التلصص عليها؛ لكنني فهمت بعدها أن وقتها في المنزل صار مجرَّد استراحات قصيرة بين جولاتها في الشوارع والميادين؛ بحثًا عن عفاريتها الضائعة.

تذكرتُ المدخنة في البناية المقابلة، تلك التي أزالوها بعد أن بِيع المطعم في الأسفل، وتغير نشاطه إلى محل لبيع الهواتف المحمولة. داهمتني تلك الذكرى فجأة عندما وجدتها جالسة على الرصيف تحت البيت مطرقة نحو السماء. كانت الأمطار قد توقفت توًّا، وبدأ الظهور المدهش لقوس قزح.

لم يعد قوس قزح يُنبت على وجهها تلك الابتسامة المضيئة التي كانت. ها هي الآن تحدق فيه بعينين دامعتين، وصدر متعَب لم يعدْ قادرًا على مواصلة البكاء.

ربما لأنها ستظلُّ تبصره من أسفل وهو يعبرُ فوق رؤوسنا، ويمضي بعد أن غادر حيَّنا إلى الأبد.

(3) (كلهم بالداخل)

«استيقظ الفتى ذات صباح، ليجدَ نفسه قد تحول إلى صرصار!».

قالها الرجل، ثم نفث دخان سيجارته صوب الشاب النائم كالقتيل بالقرب منه. شعر بأنه من المؤسف أن الشاب -الصرصار- لم يسمع دعابته النابهة؛ لكن لا يهم؛ سيضحك هو.

أما ثالثهما فلن يفهم أيًّا من هذا على أية حال.

«دعه يكمل غيبوبته، وسنحظى وحدنا بالمتعة... أنا وأنت والشاطئ. هل ترى الفتاة المستلقية على الرمال هناك؟! اسمها جالاتيا؛ وهي لي، ولتختر في المقابل أي شيء ترغبه... ماذا ترى؟!»

أشار الآخر إلى اللاشيء بإصبعين، بينهما سيجارة توشك على إتمام الاحتراق. هز كفّه وهو يقول:

«أرى سمكًا؛ كثيرًا من السمك، مشويًّا ومقليًّا ومخلُوًّا وحيًّا. السمك الحي يسبح في البحر، وأنا لم أرَ البحر في حياتي قط. في قريتنا البحر هو النيل. عرفت الفرق بينهما بعد أن صرت رجلًا يحمل (موبايل) بباقة إنترنت. أتدري؟ الإنترنت حررني من القرية... لكن هذا... مختلف».

انتهى من السيجارة ثم ألقاها خلفه. سقطت على وجه الفتى الذي لم يزل نائمًا كالقتيل، فلم يحرك ساكنًا. حاول أن يخترق

ببصره سحابة الدخان الكثيفة التي تفصل بينه وبين صاحبه المفوَّه، استعدادًا لإنصات يليق به.

أردف الثاني متجاهلًا كل ما قيل من سخافات الجياع عن السمك والبحر والقرية:

«هل ترى خط الأفق هناك؟ حيث يتلاقى ما تبصره من البحر -وهو قليل- مع ما تبصره من السماء -وهو أقل- لقد تخطيته بالأمس، وسأتخطاه غدًا، وبين كل يوم سابق وآخر لاحق، أقضي حاضرًا فردوسيًّا رائقًا بصحبة جالاتيا، ثم أعود لأستكمل رحلتي من جديد...

هل تشم رائحة البحر؟ هل ترى رائحة البحر؟ هل تشعر ببرودة رائحة البحر الناعمة على جلدك؟ لا أظن؛ لكنني أفعل...

تلك الطيور المحلقة في أرجاء السماء، تلك الحمقاء الكريهة، مثلك لا تشعر بكل هذا. أجنحة كبيرة وأمخاخ صغيرة، يا للسخف. يومًا ما سأكتب كتابًا... عن بشر طائرين. أجنحة كبيرة تحقق الحرية، وعقول أكبر تدركها وتقدرها وتسبح بحمدها؛ لكن ما نفْعُ حرية الطيور ما داموا لا يعرفون أنهم أحرار؟!»

لم يكمل؛

أطرق طويلًا أثناء اجتراره للمخاط من حلقه. بصق خلفه، فحطت كتلة المخاط على وجه الفتى النائم كالقتيل...

لكن هذه المرة استيقظ...

«ستمئة جنيه يا كفرة؟!

ستمئة جنيه كانت ستغطي ميزانية السجائر لأسابيع، كان يمكن أن نشتري بها كبابًا وكفتة، أو حتى أغطية نظيفة بدلًا من هذا الخراء الذي نتكفن به كل ليلة.. ما قيمة لوحة سخيفة كتلك، لتشتروها وتدفعوا للعساكر حتى يسمحوا بتمريرها، وتعليقها على حائط زنزانة؟! هل توقف الخراء عن كونه خراءً لأنك غمست فيه صورة للبحر؟!»

نفخ الرجل دخانه مباشرة في وجه الفتى. زفيرًا طويلًا سيئ الرائحة، ما لبث أن توحَّد مع الغمامة الرمادية التي فرضت سيطرتها الكاملة على الزنزانة، ثم سأله:

«انظر إلى اللوحة يا فتى، وأخبرني بما ترى».

كان مرقده في أكثر المواضع ظلمة. الإضاءة الموجهة إلى اللوحة جعلته يراهم من حيث لا يرونه بوضوح؛ ولولا هذا ما نظر.

حدَّق فيها طويلًا، إلى أن انحدرت من عينيه دموع ستر حياءها الظلام والدخان. تحسس موضع حرق صغير لسيجارة على وجنته، ثم مسح بطرف قميصه الدموع والمخاط الممتزجين فوق إحدى عينيه.

أزاح صرصورًا كبيرًا كان نائمًا كالقتيل فوق وسادته، ثم ألقى نفسَه في فوهة نوم... بلا أحلام.

(4) (الناجون من الجنة)

منذ شهور توقف الشجر عن النمو في قريتنا؛ لكن لم يكن هذا أغربَ ما حدث، الأغرب هو ما لاحظناه لاحقًا على كل الشجر الموجود بالفعل؛ جديده وقديمه، كان يقصُر! يومًا عن يوم؛ يقلُّ طوله بدرجة لا يمكن التغافل عنها. كذَّبنا أنفسنا في البداية؛ إلى أن بدأنا في قياسه ببكَرة القياس. تيقنَّا حينها من أن طولَه ينقُص أكثر من عشرين سنتيمترًا في اليوم الواحد.

بدأ كلٌّ منا في مراقبة الأشجارِ في أرضه، أو حتى تلك التي تحيط ببيته، إن لم يكن من مُلاك الأراضي... تأكدنا من أن قمم الأشجار باقية على حالها تمامًا؛ لم تُقَص أو تنكسر أو تتساقط أجزاؤها. وبالنسبة إلى الجذع؛ لم نجد أيَّ انبعاجات أو انحناءات قد تكون سببًا في هذا القِصَر! ما تأكدنا منه هو أن الجزء السفلي من الجذع يتغير في الشكل والحجم. وبتجميع كلِ القياسات والمشاهدات؛ أجمع الأهالي على إقرار نتيجة واحدة، وهي أن الشجر ينزلق إلى أسفل في باطن الأرض.

استغرق الأمر أقل من شهر.. اختفت بعدها كل الأشجار بلا استثناء.

قال أحد مجاذيب القرية: إن الشجر لم ينزلق؛ بل بدأ في النمو بالمقلوب!

أخبرَنا أنه موجود الآن تحت سماءٍ أخرى بالأسفل! ثم تلقَّى بعدها بعض السباب، فصمَت. ولم يمر كثير من الوقت حتى حدثت العجيبة الثانية.

بدأت الجبال في النمو، الجبال الصغيرة تزداد ارتفاعًا، والأراضي المسطحة تبدأ في التحدب شيئًا فشيئًا؛ مُكوِّنةً جبالًا مصغَّرة؛ لا تلبث أن تواصل النمو.

وبمرور الأيام؛ زحفَ التصحر على كل المزروعات. صار المنظر الطبيعي الذي تطل عليه البيوت هو الجبال الصفراء بدلًا من النخيل والزرع الأخضر.

بدأ الأطفال في استرجاع كلام المجذوب. لم يتأثروا بكآبة الكبار؛ بل تحولت معظم ألعابهم لحَفرٍ في الأرضِ؛ بحثًا عن السماء الأخرى في الأسفل، وعن الأشجار القديمة. يتخيل أحدهم أنه وجد تفاحة؛ فيمسك بالكرة الشراب ويركضُ بها مبتعدًا عن الحفرة. تقهقه البقية، ويلاحقونه ليختطفوا منه التفاحة، إلى أن يتعثر أحدهم في قمة جبل انبثق فجأة من الأرض، فتتحول محاولات اللعب إلى محاولات لكفِّ البكاء وتضميد الجروح.

قال أحد شيوخنا: «الأرض الخضراء أصابها العطش، والمياه رقيقة رفيقة».

بعدها ببضعة أيام، بدأ منسوب المياه في النيل والترع والمصارف في الانخفاض.

الأرض تتشرب المياه إذن لتسقي الحقول في الأسفل.

صارت حكاية العالم التحتي مُصدَّقةً من الأغلبية. وبعد كلام الشيوخ والمجاذيبِ المقتضب المُلغَّز؛ بدأت ثرثرة النساء وندبهن الذي لا يهاب الإفصاح. صرن يتجمعن كل صباح؛ يرتدين السواد، ويخبزن (القُرَص)، ثم يشددن الرحال إلى المقابر؛ يقرأن ما تيسر من القرآن، ثم يشرعن في النواح.

تبدأ وصلة النواح برثاء الميت، ثم على غير المعتاد تستجديه، وتطلب منه السماح والغفران والخلاص. تستدرُّ عطفه بذِكر أطفال القرية... هم لا ذنب لهم فيما اقترف الكبار من خطايا؛ حينما قُتِل من قُتِل، وصمتت البقية. لقد فقَدَت كلٌّ منهن ابنًا أو أخًا أو زوجًا في المقتلة الكبرى، ولن يحتملن فقدان الأطفال إن قضى عليهم الجوع والعطش.

أثارت أفعال النساء بلبلة كبيرة وغضبًا عارمًا. هذا محضُ جنون، وربطٌ جائر بين أحداث لا رابطًا حقيقيًّا بينها؛ غير أن ما كان مُحرَّمًا من الحديث ينبغي أن يظل مُحرَّمًا، وما تم نسيانه لا بد من أن يبقى منسيًّا.

لم يمر كثير من الوقت حتى بدأت البيوت في الانزلاق إلى داخل الأرض. هجر الناس منازلهم، مع ما خفَّ وزنُه من متاع وبقايا طعام مجفّف، لم يعودوا يملكون سواه.

سمعتُ إحدى العجائز وقتَها تتمتم:

«كان العيال ينامون في الشارع عندما طردناهم»؛ ثم مضت كالمسرنمة.

تُرى ماذا يمكن أن يحدث بعد؟ تساءلنا جميعًا بخوفٍ يائس. لقد أوشك العالم التحتي على الاكتمال، تُرى؛ ماذا سيحلُّ بنا عندما يُتِمُّ كمالَه؟!

كنا ننام في العراء، لا يفصل بيننا وبين السماء شيء، ونحن منبوذين على الأرض الصخرية كالكلاب الضالة. يتساقط المطر فوق بطوننا ووجوهنا، فلا نجد فينا من العزم شيئًا للبحث عن غطاء. راودتني ذكرى القرية قبيل المقتلة الكبرى؛ (جنتنا الصغيرة) كما كان يُطلِق عليها الكبار، ثم نظرت حولي فأبصرتُنا متهدلين مرتخين تحت المطر، وكأننا بصاق السماء.

السماء؛ ما لها لا تبدو كما نألفها؟

كانت لحظةً تُستنفر فيها الحواس والمدارك، ثم تنهار ويدُكُّها الهول دكًّا؛ لقد أشرقت الشمس من المغرب!

ألجم الفزع حركتنا، وأخرستنا الصدمة. أقسم أنني أبصرت شعورَ الناس ساعتها تبْيَضُّ في لحظات. فقدنا القدرة على تمييز الوقت، أو أن الوقت انسحب من قريتِنا ومضى، مُحمَّلًا بذاكرتنا القديمة ووعينا المعطَّل.

حدَّقنا مشدوهين في قرص الشمسِ الآخذِ في الاتساع، ثم أدركنا أنها تقترب بسرعةٍ مُطَّردة، إلى أن استقرت فوق رؤوسنا...

رأيت الناس تتلوى في الحريق، وقبل أن يذوب رأسي بلحظةٍ واحدة؛ فهمتُ أننا في الجحيم!

القِسْمُ الثَّانِي: (البُيُوتُ)

«مضطر لأن يعيش في الشوارع؛
قلبه أكبر من باب البيت!»

عماد أبو صالح

***

(تقرأ في هذا القسم)

(5) (كتاتونيا) 31
(6) (عندما تمرض البيوت) 36
(7) (الدَرَج) 41
(8) (ببراءة الأطفال وطموح الملائكة) 46
(1) 46
(2) 47
(3) 53
(9) (إعادة تدوير العالم) 54

(5) (كتاتونيا)

لطالما تساءل الناس عن سبب وجود مسمار مغروز في رأسي. مسمار ضخم من الفولاذ، يخترق قمة صلعتي، ويُخرِجُ سنّه المدبّب من الجبهة. أذكر الليلة التي حاولتُ فيها تقبيل عروسي للمرة الأولى، كاد المسمار يفقأ عينها؛ لكنه ولحسن الحظ تسبب في جرح بسيط في جفنها الأيسر، ولم يُسبب لها العمى. لم أكن لأسامح نفسي أبدًا لو تسببتُ لها في أذى كهذا، ولهذا لم أقترب منها مرةً أخرى قط. والآن هي في مكان ما، تسكن بيتًا ما مع شخص ما، بعد أن أطلقتُ سراحها؛ لتبقى على مسافة آمنة من مسماري؛ ومني.

كان هذا أسهل من استئصال المسمار الذي صار جزءًا من جمجمتي. لقد تكلّست عظامي حوله حتى صارا جسمًا واحدًا.

لم أتوقع تلك النهاية، في اليوم الذي دفعني أحدهم فيه بقوة عجيبة نحو عمود من أعمدة منزلنا القديم. تعثرتُ أكثر من مرة، إلى أن ارتطَمتْ قمة رأسي بالمسمار المثبَّت عكسيًّا في العمود. ورغم هول الألم، فإن فزعي كان أكبَرَ وأعظم.

لقد التصقتُ بالجدار، وفشل الجميع في فصلي عنه، والمسمار (قلاووظ) وصدِئ، ما منحه قوة التحام استعصت على كل خيارات الفصل المتاحة.

«يا إلهي! هل سأبقى طوال عمري مثبَّتًا بجدار منزلنا؟!»

كان هذا هو كل ما يدور في عقلي المثقوب. لم أكن متيقظًا تمامًا لتفاصيل ما دار حولي ساعتها. أفقت فقط على إقرار الحل النهائي لوضعي العجيب؛ سوف يستخرجون المسمار من الحائط ويبقون عليه في رأسي، لئلا يُحدِث تلَفًا في أيِّ مركز حيوي في المخ نتيجةً لانتزاعه!

***

يمكنني أن أكتب ألف حكاية عن بيتنا القديم، فقط إن دونتُ أحلامي عنه، بلا إضافة أو تنقيح. ترى من أين تأتي كل تلك الأحلام؟ من الجحيم ربما!

يكتبها مؤلفٌ محترف يسكن الدرك الأسفل من جهنم؛ هكذا يمكن أن يكون الأمر منطقيًّا.

قال طبيبي النفسي إنني مريض.

وقال ابن صديقي الذي سمعنا بالمصادفة ونحن نتحدث عن أحلامي، إن البيت مريض!

سألني إن كان أحد يسكنه الآن، فأجبته بلا؛ فأطرق قليلًا، ثم رمقني بحزن ومضى...

ما هذا؟

«البيت مريض؟!»

لسبب لم أعرفه؛ لم تفارق الجملة رأسي. ليلةً؛ ليلتين؛ ثلاثًا؛ وماذا بعد؟

«البيت مريض!»

وهل تمرض البيوت؟! وكيف يمكن أن نعودها؟ الناس إن مرضوا نزورهم ونهديهم الحلوى والزهور. ماذا يمكن أن نهدي بيتًا يحتضر؟

«روحك! تهديه روحك!»

جاءتني الكلمات من جوف المنزل، عندما قررت البحث هناك عن إجابة؛ رغم أنه آخر مكان على وجه الأرض أرغب في الوجود فيه، أو حتى بالمرور قربه.

ها أنا أقف قبالته...

ها هو يقف قبالتي...

«هل أنت مريض حقًّا؟!» سألتُه.

«هل أنت مريض حقًّا؟!» سألني.

جميل! لطالما أجمع كلُّ زائري المنزل على أنه مكان جميل، وطيب الأثر على النفس. تحيطه الحقول والأشجار المزهرة والعصافير من كل الجهات. يدخله النور والهواء النقي من كل النوافذ؛ عدا غرفتي...

كانت دومًا مظلمة، ربما كانت غرفتي إذًا هي العضو المريض في جسم المنزل! «وربما تكون أنت!»

التفتُّ خلفي مدهوشًا من تسلسل إجابة منطوقة على لسان غيري، مع سؤال مسرور في عقلي؛ فأبصرت ولدًا يكلم صديقه قائلًا إنه ربما يكون هو من أضاع الكرة. كان يحدثه بغضبٍ ظاهر، ويحدق في وجهي أنا!

أسرعت الخطى صعودًا على الدرَج؛ عليَّ أن أتخطى كل الشقق ذات الأبواب الموارِبة، أو حتى تلك المغلقة على ضجيج يؤكد وجود الجيران خلفها. إن عرف أحدهم بوجودي، فسيورطني في حديث مطول متخم بالذكريات، وأنا أكره الذكريات؛ أكرهها جدًّا.

تهتز قدماي، أو يهتز السلم، لا أعلم على وجه اليقين؛ لكنني أحسست بفقدان مفاجئ لتوازن جسدي. ركضت إلى أعلى حتى وصلت إلى شقتنا، وعندما دخلت؛ كان الدوار قد أحكم قبضته على حواسي جميعها.

وكأن رأسي صار مجرد ثقل رهيب يترنح فوق كتفي، وما لبث أن صار ثقلًا رهيبًا يجرجر جسدي خلفه بقوة جذب مهولة، وكأنها تحولت فجأة لكرة من الفولاذ...

تمامًا كالمسمار المغروس في عظامي!

أسقط وأتخبط في الجدران. تهتز الحوائط وتتزلزل البناية بأكملها.

يا إلهي! لا؛ أرجوك؛ سيتداعى المنزل؛ سأتداعى.

ارتطم رأسي بجدار ما، لا؛ بعمود؛ أجل هو ذاته الذي ارتطمت به في طفولتي؛ هذا الذي غرس المسمار في عقلي حتى أصابه الصدأ؛ هو ذاته؛ أجل.

يهدأ الزلزال شيئًا فشيئًا، وينسحب الدوار من حواسي بالتدريج، أحاول أن أستعيد قوتي، أحاول أن أقيم جسدي واقفًا؛ لكن لا أستطيع. قوة ما تمنعني من النهوض، تمنعني من الحركة.

المسمار؛ المسمَار مغروس في العمود الخرساني، في موضعه القديم ذاته. أدفع الجدار بكل قوتي، أصرخ، أطلب النجدة، أبكي بحرقة وأصرخ من جديد، دون أن يتغير شيء.

أفقد القدرة على مواصلة الصراخ، تخور قواي، يمزق الألم ظهري المَحْنِيَّ، يتحول الألم إلى خدر؛ لكن شيئًا من هذا لا يشبه الفزع الذي سيطر على تفكيري بالكامل. الأمر أفظع من أفظع كوابيسي. لقد التصقتُ بجدار بيتنا القديم؛ إلى الأبد.

«البيت مريض!»

ربما كان يحتاج للمسمار في رأسي ليستقيم ظهره العجوز؛ لكن ظهري أنا؟!

يمر الوقت في العالم من خلفي، هذا الذي صرت لا أنتمي إليه بأي شكل، فالعالم يتحرك؛ أما أنا فلا أستطيع.

أستمع لثرثرة وتمتمة وهمهمة بلا انقطاع، الكثير والكَثير والكثير منها، أصوات مشوّشة لا معنى لها...

ربما لأن الزمن في العالم خلفي يختلف عن الزمن في جدار البيت...

ففي الجدران لا وقت...

في الجدران لا معنى...

في الجدران لا حياة.

(6) (عندما تمرض البيوت)

كانت المرة الأولى التي يصيب فيها وباء بيوت الناس؛ بدلًا من أن يصيب الناس أنفسهم. تأتي العدوى من العدم. يمرض البيت، وتظهر عليه الأعراض تباعًا، بالترتيب ذاته والحدّة نفسها. تتشقق الجدران وترتفع درجات حرارتها، وكأنها تفصل بين أهل البيت والجحيم. صوت أنين يصدر من كل ركن. يتساقط الطلاء الملون، فيتبدى من تحته شحوب الأحجار الرمادية وهزالها. المياه تتسرب من كل الأسقف، ومخلفات الصرف تطفح من كل الأرضيات.

سيموت اليوم بيت آخر، أو عشرة، أو مئة. الأعداد تزداد بشكل لا يتوقعه أحد، وليس هناك من علاج.

***

يقف التوأمان في الوسط تمامًا، في قلب منزلهما الذي توقّف عن الطَّرق أخيرًا بعد رحلة احتضار طويلة، كانت خلالها عيون الموت تُحدّق فيهما من كلّ موضع، وعبر كل باب أو جدار. لقد مات إذن! وسيبدأ في التحلل بدءًا من اللحظة التالية. ستهاجمه الديدان والهوام، ستسكنه الكلاب الضالة والغربان، إلى أن تنهيه تمامًا.

الآن...

لقد بدأ الأمر...

وكل شيء مات، حتى الدراجة والمكتبة، والأطباق البلاستيكية الملوَّنة، حبتا المانجو وبقايا كعكة عيد الميلاد في الثلاجة. الصور على الحائط، والرسوم في الأدراج، وملصقات الشخصيات الكرتونية على الطاولات والجدران...

الذكريات؛ كل الذكريات؛ وأمهما، وملابسها الزرقاء.. وملابسهما الزرقاء.

يجب أن يرحلا الآن؛ لا يهم إلى أين، المهم أنهما لن يستطيعا البقاء في بيت ميت...

لكن إلى أين؟

وملابسهما الزرقاء؛ كيف سيرتديانها والحرس في الخارج؟ هم في كل مكان يتجولون ببنادقهم، وبحاويات المعقمات التي يطهروا الناس والبيوت بها...

«لكن يا إلهي؛ ما أحمقنا!»

هكذا فكر أحدهما قبل أن يذكِّر الآخر بأنهما في كل الأحوال سيتجردان من ملابسهما قبل الخروج، فالملابس تحمل عدوى الموت من بيت مصاب لآخر سليم، والناس هم أداة الوباء في تفعيل المرض...

ولهذا صار البروتوكول المتَّبع هو تعرية أهل البيت الموبوء، وتعقيمهم جيدًا؛ جيّدًا جدًّا بدرجة مؤلمة، ثم عرضهم في أماكنَ مفتوحةٍ لعل أحد أصحاب البيوت الحية يختارهم، ويمنحهم مأوى جديدًا معافى.

وهكذا؛ خلع كل منهما ملابسه الزرقاء وألقياها بعيدًا، في قلب البيت؛ أجل.. هذا الذي توقف عن الطرق منذ قليل، والذي بدأ الذباب يحوم حوله في هذه اللحظة تمامًا.

خرجا من البوابة التي بدأت في التآكل. لم ينظر أيٌّ منهما نحو الآخر؛ لا؛ ليس وهما عاريان. الأمر جلل وصعب التصديق والاستيعاب، بتلك الدَّرجة التي يحتال فيها لا وعي المرء على وعيه، ويضع بينه وبين الواقع حجابًا سميكًا من البلادة. يمنح جلد الروح صلابة وخشونة ليحميها من الشظايا في لحظات الانفجار.

ها هي الأيادي تتلقفهما؛ تعبث بعوراتهما لتعقمها وتعقمهما...

لكن؛ البروتوكول لا يتوقف هنا!

البروتوكول يقف أمامهما ويصرخ؛ البروتوكول يمنح الحرس الحق في استعمال مطهر أكثر شراسة، مخصص للسكان الذين ماتت بيوتهم وهم فيها، فهم أكثر بني آدم خطرًا على وجه الأرض.

البروتوكول يخرج من رشاش الحاويات السوداء ويطفح على وجوههم...

البروتوكول يمحو ملامحهما تمامًا، ليصبح وجهُ كلٍّ منهما لا يشبه وجوه البشر في شيء؛ بل يشبه مؤخراتهم إلى حد بعيد.

البروتوكول يضحك...

البروتوكول يمضي...

لقد تمَّ التعقيم بدرجته القصوى على أكمل وجه، والآن صارا جاهزين للعرض على أهل البلدة، في محاولة بائسة لإيجاد منزل

بديل. يقفان هناك بين عشرات من الناس، جسدين لا وجه لهما. يقدم لاوعيهما مساعدةً جديدة، ويمنح وعيهما قدرًا مضاعفًا من البلادة. حجاب جديد يُسدَل على العالم أمامهما، فيبصرانه من نافذة صغيرة في قلب الحجاب؛ صغيرة جدًّا؛ هكذا أفضل.

«لا أريد أن أرى!»

هكذا فكر الأول، ثم الثاني، ثم رحل كل منهما في طريق نحو بيت جديد؛ حي!

***

لم تكن قصة التوأمين فريدة من نوعها، فما حدث لهما لم يزل يحدث لغيرهما، ولن يتوقَّف عن الحدوث أبدًا. صار العرايا ذوو الوجوه المطموسة الملامح يتجولون في كل مكان، ويوجدون في كل البيوت؛ أجل؛ لقد ظلوا بالوضع المخزي ذاته، وسيظلون إلى النهاية.

هكذا نص البروتوكول على ما أظن:

«كل من مات بيته وهو فيه، يخرج منه عاريًا، ويظل عاريًا، إلى أن يستره تراب قبره!»

لكن الملابس الزرقاء؟

ظلت ذكرى مزروعة في روحيهما، ليست كزهرة؛ بل كلغم، ينفجر وينفجر وينفَجر بلا نهاية، واليوم سيحتل الدخان الأسود السماء والهواء. سيطرق أبواب البيوت، ويعبث بأنوف الناس وصدورهم. سيجذب فضولَهم من كفيه، ويذهب به إلى الحريق

الكبير، حيث تُحرَق فضلات البيوت الموبوءة. سيلتفون حول الحيوات والذكريات التي تتلوى وسط ألسنة اللهب...

سيقف التوأمان العاريان على مسافةِ نصف متر، وألف جدار، سيراقبان كومةً من الملابس الزرقاء وهي تحترق؛ وتنعدم. يتمنى كلٌّ منهما لو يرتمي في حضن يعرفه...

أُم؛ أب؛ أخ...

لكن كلهم رحل؛ كلهم!

ينظر أحدهما إلى الآخر، فلا يعرفه؛ فيمضي...

ويعود إلى بيت ليس بيتَه.

(7) (الدَرَج)

سمحتُ لنفسي بنظرةٍ أخيرة لهما قبل المغادرة. ألقيتُ سلامًا حييًّا وأنا أُجبرني على غض البصر عنه؛ عنها؛ عن ذراعه الملتفة حول كتفيها الصغيرين... أتعرِف تلك الغيرة التي تنغز قلوبَ النساء حينما تبصرن امرأة بين ذراعَي حبيبها؟

غيرة أو غبطة أو سَمِّها ما شئت، هي ذاتها التي تعتصر قلبي حينما أرى فتاةً في حضن أبيها. ينضغط حلقي ببكاء وئيد، وترتعش شفتاي ارتعاشة الصغار التائهين في سوق مزدحمة.

تظل الصورة ماثلةً أمامي حتى وإن عبَرَت. ها أنا أراكما ترتسمان على صفحة الظلام. تلك النظرة المشاغبة في عينيها، انكماش جسدها الصغير لصقًا بجسدك الصلب، فَرْحَتَيْكما التي لا تخطئهما عين أو قلب، تشبثها بك؛ بذراعك ورائحتك وكفك الكبيرة، حتى شعيرات لحيتك السوداء، ورغم خدشها وجنتها الغضّة أحيانًا، لا تثير ألمها بقدر ما تثير شعورها بالطمأنينة، في كنف هذا الخشن الحنون؛ القوي الرفيق.

تلك الحفرة في صدري لم يقدر أي شيء أو شخص على ردمها. هذا جرح ملتهب لا يندمل.. أين أنت؟

تنقشع الصورة المنطبعة على الفراغ، فأبصر بسطة السلم الفسيحة الغارقة في ضوء أصفر. تبدو كصورة في جريدة عمرها مئة عام، أو

كلقطة من حلم مزعج. أتقدم بضع خطوات على الأرضية الرطبة. تملأ أنفي رائحة بول القطط، وأشعر أن للهواء على كفي وزنًا وثقلًا.

لأول مرةٍ أدرك التشابه اللافت بين تلك البناية والأماكن التي أنسحق فيها، في كوابيسي كلَّ ليلة. هل يجوز أن أسميه معمار الكابوس؟ طراز خاص من الأبنية تُشيد في فضاءات عقلي دون انقطاع. تزحف على أَمسِيَتي جميعها، وتضرب بأساساتها في ذكرياتي. لقد جُبلت الذكريات على دفن نفسها في الدرك الأسفل من الوعي؛ لكن على قدر ضخامة البناء يكون طول أعمدة الأساسات. تنغرس عميقًا متخطيةً الأيام والأعوام، وكل ما تم وأده بنجاح، فتفوح رائحة التّفسخ، وتبعث المسوخ من رقدتها في الأسفل. وهذه البناية هائلة الضخامة، وها أنا أضغط زرَّ المصعد لينزل بي إلى أسفل.

لكنه لا يستجيب... أغلب الظنِّ أنه معطّل. مشيت ببطء نحو السلم. مددت رأسي بحذر باحثة عن أي بصيص نور، فوجدته مكتملَ الإظلام.

يا إلهي! وكأن رأسي تقيأ ما فيه، فانطبع على ما يراه. أعرف هذا السلم المظلم تمام المعرفة. كل ليلة أقضي نومتي في الركض هبوطًا عليه، كل ليلة، والركض لا ينتهي، والطابق الأرضي لا يُدرك؛ لكن لا... عليَّ أن أكفَّ عن التفكير بهذه الطريقة. الأمر لا يحتمل كل تلك المبالغات. لقد انقطع التيار الكهربي، وما عليَّ سوى العودة للشقة؛ حيث لا تزال حفلة (السبوع) مقامة، لأطلب

المساعدة. يمكن لأي شخص أن يرافقني على السلم إلى أن أصل لبوابة الخروج، وأغادر هذه الكتلة الخرسانية الكئيبة.

التفتّ صوب باب الشقة. أبصرتُ أهلي من خلال فرجة الباب يجلسون متجاورين متجهمين بعيون شاخصة، وحولهم الأضواء الساطعة للنجف والبلالين والملح المنثور في الهواء احتفالًا بالوليد. الشّقة المضيئة بدت وسط ظلام البسطة كلوحة على جدار العدم، وأهلي فيها صور مقصوصة من لوحةٍ أخرى لعزاء، وملصقة عليها.

كنت مزروعة في مكاني. لا تطاوعني شجاعتي على النزول وحدي، ولا على العودة للحفل، إلى أن رأيتك تتقدم نحوي.

بدا كل ما أبصره خلفك مسطَّحًا؛ وأنت وحدك المجسم. كل الأشياء فراغ، وأنت وحدك تشغل حيزًا من الفراغ، إشغالًا بديعًا ومشبعًا وشهيًّا. الزمن يمر في الخلفية، يتجاوزك كنهر يجرف كل اللحظات والتفاصيل، وتبقى أنت ثابتًا شامخًا لا تتزحزح من بؤرة رؤيتي؛ من بؤرة انتباهي.

«لا تخافي؛ سننزل معًا»

تقول مبتسمًا وأنت تفتح إضاءة هاتفك المحمول، وتشير إلى هاتفي لأفعل المثل. تتقدمني مع ضوئك الموجَّه إلى درجات السلم، وأتبعك مع ضوئي الموجَّه لكتفيك وشعرك وطرف لحيتك. بالكاد تضيء بطاريتك ثلاث أو أربع سُلَّمات، وأنا لا أحتاج أكثر لكي أطمئن؛ ثلاث خطوات؛ وأنت.

لا أذكر المدة التي استغرقناها في الهبوط قبل أن أتساءل: لماذا أشعر بأني نزلت أكثر من ثلاثة طوابق؟!

أسررت السؤال في البداية، ثم اضطررت للجهر به: «كيف لم نصل إلى الآن؟ أشعر بأننا هبطنا أكثر من عشرة طوابق» رددتَ عليَّ بصوتك الحبيب، وطلبت مني ألا أخاف؛ فأنت معي.

كان الضوء حينها قد بدأ في الخفوت. لم يعد يضيء أيًّا من درجات السلم. بدا وكأنه مضيء في ذاته، «فوتون» هائم في الفضاء؛ حيث لا أجسامَ تنعكس عليها أشعته ليَظهَر ويُظهِر. لم أعد أبصر منك شيئًا؛ أسمع حفيف خطواتك وصوت أنفاسك الهادئة فقط.

رنَّ هاتفي فجأة، توهجت الشاشة بنور ساطع مزعج، حتى ظننت أن هاتفك قد انطفأ تمامًا.. أم أنه انطفأ بالفعل؟

كان المتصل هو أحد أقاربي بالأعلى، والذي انتابه القلق حينما عرف أن المصعدَ قد تعطل وبداخله بعض السكان. أخبرته ألا يقلق، فأنا معك على السلم، ولا داعي للخوف.

صمتَ قليلًا، ثم أخبرني مندهشًا أنك ما زلت معه في الحفل، أنت وابنتك!

بدا صوته فجأةً وكأنه قادم من عالم آخر؛ ينخفض؛ يبتعد؛ يواصل الابتعاد؛ يتلاشى... إلى أن انتهت المكالمة بانتهاء شحن الهاتف.

بدأت قدماي في الارتعاش، كخيطين من الحرير في يد طفل يلهو. بالكاد تمكنتُ من التحكم فيهما عندما توقفتُ متشبثة بالدربزين. رفعت ساقي بصعوبة لأعلى في اتجاه السلمة خلفي؛

لكنني وجدتها محاولة فاشلة للعثور على شيء لا وجود له. كانت ساقي تتدلى في الهواء، حيث لم يكن هناك من سلم...

فراغ... فقط فراغ... والطريق الوحيد الموجود الآن وسط هذا العدم، هو الطريق إلى أسفل.

زحفت كفك على كفي برقة، فاستَشْرت في جسدي قشعريرة مثلجة. ضرب قلبي وجعٌ شرس، ثم امتد إلى كتفي الأيسر وظهري. أحسست بأن صدري يوشك على الانفجار فزعًا، وكل هذا الثقل الجاثم فوقه، تمدد وتضخم وصار يجثم فوق حنجرتي، فلا أقوى على الصراخ.

عاد صوتك الحنون ليطمئنني، ويطلب مني برفق ألا أخاف؛ فأنت معي.

اقتحمت أنفاسك الحارة برودتي. أدركت أن هالة الدفء حولك هي السبيل الوحيد للبقاء على قيد الحياة، بعد أن صرتُ باردةً كجثة، فانكمش جسدي الصغير لصقًا بجسدك الصلب. تمكن الخدر من ساقَيَّ حتى فقدت سيطرتي عليهما تمامًا، فصرت أتشبث بك لأقيم ظهري، بذراعك ورائحتك وكفك الكبيرة.

نواصل الهبوط معًا؛ لكم من الوقت؟

عام؟! عشرون؟! أو أكثر؟! هل وصلنا إلى الدرك الأسفل الآن؟ لا أدري!

لقد ذاب المكان في الظلام؛ ثم الزمان...

ثم ابتلعتني البناية.

(8) (ببراءة الأطفال وطموح الملائكة)

(1)

لا أذكر تحديدًا سني حينما شهدتُ أول مذبحة في حياتي، يومها أكلَتْ قطتنا أحد صغارها بعد ولادته ببضع ساعات. أظن أنني كنت أبلغ من العمر بضع ساعات أيضًا!

ظننت أنها تزيل الغشاء المخاطي المحيط به كما فعلت مع الآخرين، لاستكمال عملية استحضاره إلى العالم؛ لكنها بعد أن تركته وحيدًا متكوّرًا على نفسه وسط بسطة السلم الفسيحة الساطعة الإضاءة، وعند سماع أول مواء يقترب، انقضَّت عليه. أحكمت عليه فكَّيها وحملته إلى ركنها المظلم.

رأيت الصغير على عتبة فمها يتحرك، حركة واهنة تكاد تُرى، كنبضٍ غير منتظم في صدر شيخ يحتضر، وبعد برهة، كان قد اختفى بالكامل في جوفها.

عاشت القطة في بيتنا لأعوام بعدها. كنت خلالها أتسلى بالتحديق في جسمها، فقد ظلت في بطنها تلك الحركة الواهنة التي تشبه النبض غير المنتظم في صدر شيخ يحتضر، ولم تتوقف حتى موتها، عندما وجدناها وسط بسطة السلم الفسيحة الساطعة الإضاءة، وقد بقرها شيء ما.

***

(2)

ربما كانت نشراتُ الأخبار هي السبب، أو الأغاني الحماسية، أو أفلام الكرتون، أو ثأرٌ قديم وُلِدْت به وسأموت معه، أو ربما كلهم مجتمعين. المهم أن الفكرة كانت دومًا موجودة في مكان آمن وخصب من وعي طفولتي.

«يومًا ما سأمتلك قوةً خارقة كأبطال الأفلام!»

كانت بداية لطيفة مع (بيتر بان)، ومغامراته في (نيڤرلاند)؛ لكن مع مزيد من نشرات الأخبار، أدركتُ أنه على الرغم من خطورة (كابتن هوك) وعصابته، فهذه الجزيرة البديعة حيث تسكن الجِنيَّات المضيئة والأطفال دائمو الطفولة، لا تشبه واقعنا في شيء. لقد صار التلفاز بالوعةً مفتوحة على بيتنا. كان أقرب ما يكون لمؤخرة الشيطان التي لا تتوقف عن قذف خراء العالم في غرفة معيشتنا بلا انقطاع! وحينها تبددت صورة (نيڤرلاند)، وحلت محلها صورة (جوثام).

الحياة في (جوثام) كريهة ومظلمة. لم تقدر سِنِي عمري القليلة على تزويدي بالوسائل الدفاعية المناسبة لحماية عقلي، حينها ظهرت العفاريت في حياتي. كانت تعويذة استحضارهم هي الشعر؛ الكثير منه.

تعاويذ الشعر غيَّرت كل شيء، لا لم تغير؛ بل أظهرت. كان اكتشافًا ثوريًّا لأرواح الأشياء، الجمادات والأماكن والبلاد والحيوانات والأشجار، النجوم والأمطار والطين وأبراج الكهرباء وقضبان القطار، أحداق الناس وأصابع أيديهم، والشعيرات

المنتصبة على سواعدهم. عرفت أن كل شيء حي يتنفس ويتكلم ويبعث برسائل في الفراغ؛ حتى أنه لا يملك روحًا واحدة؛ بل هو منخرط في عملية تناسخ أرواح أبدية، تفريخ لا نهائي ينتج عن لقاء كل عنصر بآخر، والقابلة هي استعارة ما.

بالإضافة إلى أن عصِي الاستعارات السحرية قادرة أيضًا على تحويل الأشياء، واستئصال أرواحها وزرعها في أجساد أخرى، قادرة على دمج الملامح، وبترها ووصلها وعجنها وخبزها.

وجدت نفسي في مطبخ بحجم العالم؛ حيث يتم طهي كل شيء وتحويله لغذاء شهي، حتى أنني اكتشفت على الطاولة هناك قائمة طعام مخصوصة، تحوي أصنافًا لذيذة وحارة ومشبعة، مصنوعة من القبح والمآسي. الشعر يمكنه تحويل المذبحة لقصيدة في منتهى العذوبة، ستجعلك تصفق بعين دامعة، بدلًا من أن تقطع شراايينك بعين مفقوءَة. وفي هذا المطعم العملاق، أُصِبت باضطراب الشهية المفرطة، وبدأتُ في أكل العالم.

هل كانت هذه هي قوتي الخارقة؟

بالطبع لا؛ لكنني كنت مغمورة بالنشوة، فالتهمتُ الحلم ومضغته على مهل، حتى يبقى طعمه لأكثر عدد ممكن من السنوات.

وخلال هذا الوقت العابر، ازدادت شهيتي شراسة وسطوة، لم تعد تكتفي بالتهام الشعر والأحلام. صارت تطالب بالمزيد، فهي لا تطعمني وحدي؛ بل كانت مسؤولة عن تغذيتي أنا وعفاريتي، وإبقائنا جميعًا على قيد الحياة، وهنا بدأتُ في التهام الواقع.

كانت أول قضمة من الواقع من جدار بيتنا القديم، ولم أقدر على التوقف بعدها، أُصِبت بالسعار، وأكلت كل الحوائط والأعمدة إلى أن تداعى فوق رأسي، وأهلي أطعمتهم لعفاريتي. صارت لهم ملامح شديدة الوضوح والتحديد. ذات مساء وقفت جوارهم أمام المرآة، فجفلت لمَا رأيت، لقد كانت العفاريت أشد وضوحًا مني! فهمت ليلتها أنني -دون وعي مني- قد أكلتُ نفسي! بكيت كثيرًا، ثم احتضنت أحدهم، ونمت بضعة أعوام.

متى استيقظت؟ لست متأكدة!

هل استيقظت؟ لست متأكدة كذلك!

في الحلم؛ رأيتني واقفة في شرفة بيتنا مع أمي، نحدق معًا في الأشجار الكثيفة والحقول المترامية على امتداد البصر، هكذا كانت تراها، وهكذا كنت؛ لكن الأمر لم يعد كذلك. كنت واقفة هناك أسألها بذهول: ماما، لماذا يبدو كل شيء مثل (الچيلي)؟!

فصمتت.. ثم ذابت.

يبدو أنني أكلت أكثر مما يجب. أكلت كل الأشياء إلى أن تبقَّى فراغ مضيء، ثم أكلت الضوء، فتبقى فراغ مظلم، ثم أكلت الفراغ والظلام، فتبقى هذا الذي لا يمكن وصفه.

ظلام أبيض؟ لا؛ لكنني سأقولها مجازًا وتجاوزًا.

في الظلام الأبيض، لم أتوقَّف عن ابتلاع العالم، على الرغم من أن الأمر لم يعدْ ممتعًا؛ لكنه صار حتميًّا، قهريًّا، غريزيًّا، أيًّا كانت الكلمة المناسبة.

«أدري أنك لا تخاف الطفل حيًّا،
إنما أدعوك صدقًا،
أن تخاف من الصغار الميتين.»

أذكر الليلة التي أكلتها فيها، كانت صعبة المضغ، جهنمية المذاق؛ لكنني تمكنت من ابتلاعها عدا آخر كلمتين.

تبًّا لتميم، الصغار الميتون لم ينزلقوا في المريء، انحشروا في فوهة قصبتي الهوائية، فأُصبت بالاختناق لعدد من السنوات، إلى أن تمكنت من ابتلاعهم. ابتلاع الجثث صعب في البداية؛ لكن الكثرة تورث الاعتياد.

«الحب ليس حبة أسبرين؛
نتناولها عندما نشعر بالصداع،
وليس نكتة خفيفة؛
نتداولها في أوقات الضجر.
الحب...
شهادة ولادة دائمة؛
نحملها برأس مرفوع،
لنخترق شارع المذبحة.»

حشرتُها في فمي بسرعة ولعنت رياض، تبًّا لهم جميعًا.

التهمت كلَّ الذكريات والدموع والأمراض النفسية لكل من أعرف، والحب، كل الحب على الأرض، وكل الأطفال، وكل المخيمات، وكل الطيور والزواحف.

صرت امرأةً سريالية على خلفية كلاسيكية، أبدو عليها كدُمل أو كحدبة أو كجمجمة تتدلى من شجرة كريسماس.

أحوص في اللوحة التي لا أشبهها. أبحث عن ثغرة في الإطار أو بوابة في السماء؛ لكن الإطار محبوك والسماء محكمة الغلق، والرسمة مثالية تمامًا ومعلَّقة وسط مذبحة.

أمعن النظر في الخارج، فأدرك مع الوقت أنني بقعةُ دماء لطخت سطح اللوحة الكلاسيكية.

وُلِدت وسط المعركة، تفجّرت من صدر ما، فحملتني مقدمة رصاصة من ضلعه ورشقتني في قلب اللوحة.

ثم شطر الإطار الوجود إلى نصفين!

لقد تعبت، وأُصِبت بالتخمة. لم أعدْ أتسع للعالم. صرت أتقيأ بلا انقطاع...

«فأين أخفي وجهي المشوها؛
كي لا أعكر الصفاء الأبله المموَّها
في أعين الرجال والنساء؟!»

أذكر أنني تقيأتها في حفل عيد مولدي، وفي عشاء رومانسي على ضفة النيل. تقيأت صرخة مونش!

كان لا بدَّ من إنهاء هذا الوضع. عيادة الطبيب النفسي هي البالوعة المناسبة لإفراغ كل هذا.

«سيفيد (الزولام) لبعض الوقت!»

هكذا قال...

«(اللاموتريچين) كذلك أثبت قدرًا من الفعالية. ربما مضاد للذهان أيضًا»، ابتسم، وابتسمت، ثم أفرغت معدتي في وجهه.

كنت حمقاءَ عندما اعتقدت أن حبس القيء في جوفي هو العلاج. لقد نجحت العقاقير في ذلك بالفعل؛ لكن ما حدث بعدها كان أسوأ.

«أن ألف ذراعي اليسرى حول كتفك،

واليمنى حول كتف العالم،

وأقول للقمر: صوِّرنا»

ظلت ملتصقة بجدار معدتي كالغراء، لم تنفجر من فمي هذه المرة.

اكتشفت أن القيء يملك من الخصوبة ما يجعله قادرًا على الإنبات بسرعة مخيفة، إذا ما توفرت له الظروف المناسبة، في صوبة آمنة ومظلمة ومستقرة. وقد كنت أنا تلك الصوبة المثالية.

أول فرع لاحظته، كان بكرًا رفيعًا لينًا، وجدته يتدلى من جفني الأيسر، قصصته بسرعة؛ لكن فرعًا آخر أكثر صلابة اخترق عيني الثانية وامتد أمامي، إلى أن اصطدم بباب الغرفة المغلق بإحكام. أصابني الهلع.

انسللتُ من هشيم الباب بصعوبة مؤلمة. كل جزء متبقٍّ منه كان أشبهَ ما يكون بخنجر يمزق جلدي؛ لكنني تمكنتُ من تجاوزه. غادرت المنزل وركضت في الشارع بعين مفقوءَة من الداخل، وجسد لا يتوقَّف عن إنبات الفروع.

وفجأةً؛ انبثقت من سيقاني مئات الجذور، وضربوا جميعًا في بطن الأرض.

تعثرت، سقطت، واصلت الإنبات والتشعب والتجذر بسرعة انفجار عظيم آخر.

تفجر رأسي...

تفتت عقلي وذُرَّ في الهواء...

التصقت كل ذرة منه بفرع، وامتطته في رحلة امتداده.

***

(3)

«وإني طفل هواك؛

على حضنك الحلو أنمو وأكبر!»

أين قرأت الصغيرة تلك الكلمات؟ هي على الأرجح سمعتها، أو حلمت بها. لم تتمكن من التذكر؛ لكنها ابتسمت، وراحت تطوح ساقيها المتدليتين من فوق فرع الشجرة.

تعيش الفتاة منذ سنوات على مقربة من الشجرة العملاقة وسط الطريق. كانت دائمًا ما تتسلى بتسلقها والتحديق فيها، ومراقبة تلك الحركة الغريبة في جذعها...

حركة واهنة تكاد ترى؛

كنبض غير منتظم في صدر شيخ يحتضر!

(9) (إعادة تدوير العالم)

أخبرتني الشجرة أن جذورها تمتد عميقًا في بطن الأرض، حتى أنها تخترقها بالكامل وتنبت من الجهة المقابلة من الكرة الأرضية، وأن نبتها هذا لا يكون جذوعًا وفروعًا وأوراقًا؛ بل أطفالًا تشبه هيئاتهم سائر الناس؛ لكن لهم أرواحًا فريدةً وهشّة، أشبه ببلورات الثلج... أخبرتني أيضًا أن قتلَ تلك الأشجار العتيقة بالانتزاع من الأرض، ربما يتسبب في شق الكوكب إلى نصفين، وأن قتلها بالبتر سيودي بأرواح أطفالها على الجهة المقابلة إلى طول المعاناة، ثم الجفاف والذبول.

كانت فروع شجرتي متشابكةً متشعّبة ممتدة في جميع الاتجاهات وكأنها شبكة عصبية مشتركة بيني والسماء، تنقل رسائلها إلى روحي، وعندما قتلوها أصابتني عواصف من الألم. مجربو المرض يعون جيدًا الفروق بين آلام الأعصاب، وسائر أنواع الألم الأخرى، كالعضلات والعظام والأحشاء. الضغط على عصب يخلق وجعًا كهربيًّا حادًّا وضاربًا، لا يماثله أي عرض لمرض آخر، وقَطْع العصب لا مصير للمُصَاب به سوى الشلل، وأنا كنت أملك شبكة عصبية كاملة تم بترها وتشريحها وتحويلها لمقاعد وطاولات، وربما كانت مما صنعوا به مشطي الخشبي أو ورق دفتري الذي أدون عليه هذه المرثية.

في رثاء صديقتي الشجرة، أكتب هذا...

جذور الشجرة التي اخترقت الأرض وأنبتتنا، مرت بطبيعة الحال بمركز الكرة الأرضية وما به وحوله من جحيم مستعر. وكما غذت روحينا بالشعر ورسائل السماء، بثَّت فينا بعضًا مما تشرَّبته من حمم الجحيم وكوابيسه، نحن مخلوقان من طينة قوامها النقائض والأضداد، وليس هناك من عقلٍ يحتمل هذا دون أن يصيبَه قدر من الشّطط ولون من ألوان الجنون الكثيرة.

هل أتكلم أكثرَ مما يجب؟ ربما لا يليق هذا بمرثية، أو بنص قصصي في كتاب؛ لكنه لائق كتتمة حكاية كانت مبتورة، فصل أخير من حياة ما، سريالي ربما، أو حتى تجريدي.

هل يمكن أن تتجرَّد القصة إلى أن تتحول إلى مجرد مرآة؟

فارغة في ذاتها؛ لكن يمكنك أن ترى فيها انعكاس العالم برمته. للأرواح مرايا لو تعلم، بعضها يظهر لك انعكاس ملامحك، وبعضها يظهر لك تجسيدًا لكوابيسك أو أحلامك، شياطينك أو آثامك أو طفلك القديم، وأنا.. وضعت مرآتي مقابل مرآتك، أبصرتك وأبصرتني، أطَّرت وجودك وأطَّرت وجودي، ورأى كل منَّا نفسَه في قلب الآخر. خُلِق من أجزائنا كلٌّ فريد، ثم تضاعفنا؛ إلى ما لا نهاية!

حسنًا؛ فلأكفَّ عن الثرثرة والتداعي الحر، وإن كان لا بد من قصة؛ فهاتيك واحدة...

***

لم تقدر الصغيرة -ذات التسع سنوات- على السكن في بيتها قط. كانت تعيش فيه فقط.. وتسكن الشجرة! صديقتها العملاقة الواقعة على حدود -القرافة- التي يوجد فيها البيت.

«لقد رأيت الشجرة تنبض!»؛ أخبرتهم فضحكوا.. ولم تفهم سبب السخرية، ففي القصص تتحدث الأشجار دون أن يضحك أحد، القصص التي لم يقصها عليها مخلوق كانت تعرفها بالطبيعة وكأنها وُلِدت بها، وكأنها حفريات أزلية مغروسة في تلافيف مخها، خلقت بها وستموت معها.

كانت المسافة بينها وبين أقرب مدفَنٍ لم تتعدَّ العشرة أمتار، مسافة قصيرة يمكن أن تقطعها أرواح الموتى بيسر في طرفة عين، ولهذا صارت قناعتها الراسخة وإحساسها الأكيد أن أرواح الناس تنبض في جذوع الأشجار، وتزهر من فروعها.

تداول الجيران الأقاويل بأنها (مخاوية)، ولم يعرفوا أن قرناءها ليسوا من الجن؛ بل من الحواديت.

أصبح بيتها الصغير المقام لصقًا بمقبرة عائلتها، برزخًا بين الواقع والخيال، ولم تجدْ في ذلك غضاضةً قط، ولم تُعِد النظر في مدى صحته ومنطقيته. أليسوا يعيشون على الأرض الحدودية بين الأموات والأحياء؟!

ما الغريب إذًا في ذاك البرزخ الآخر الذي تدركه وحدها؟!

ولهذا صارت منطقتها الحدودية واقعةً بين ثلاثة عوالم: الأحياء، والأموات، وأبطال القصص.

الغريب أن ساكني كل عالم غير مدركين لوجود العالمَين الآخرَين، كانت في نظر كل منهم غير منتمية، كضيفة أو عابرة سبيل. صار انتماؤها الكامل للمناطق الحدودية، للبرزخ بين الحياة والموت، للأعراف بين الفردوس والجحيم، للجنون بين الواقع واللاواقع...

للمناطق السكنية التي نشأت وتكاثرت وزحفت وسط المقابر خصوصية شديدة في كل تفاصيلها، من أهمها سوق العمل المرتبط بالمكان، بدءًا من الصناعات والحرف المرتبطة بالتغسيل والدفن، واحتراف ترتيل وتجويد القرآن وتلاوة الأدعية، وتوفير الاستشارات والدعم وتخليص الأوراق الرسمية التي يجهل أهل الميت كيفية عملها، وصولًا إلى التجارة غير الشرعية في عظام الموتى ومحتويات المقابر، وتسهيل بعض طقوس السحر وعمل الأعمال.

أما عن الفتاة، فقد كانت سليلةَ عائلة عُرِفت منذ سنوات طويلة بأنها المصدر الأقدم والأوثق لصناعة وتوريد الأكفان في مصر القديمة. عندما تُوفِّي أخوها الأكبر في حادث حريق، وهو الذي كان آخر فرد من أسرتها، عرفت أنها صارت الوريثة الوحيدة للبيت المكون من غرفة كبيرة ملحقة بمدفن، ولما تحتويه مما تبقى من بضائع غير مبيعة. مئات الأكفان أصبحت هي مالكتها الوحيدة، وهي لم تعمل يومًا بالتجارة ولا بالغسل.

ماذا يمكن أن تفعل إذن؟

في البدء حاولت تجاهل وجودها، رغم ما تشغله من مساحة ربما بلغت ثلاثة أرباع الغرفة، تزيح كل كومة لتنظِّفَ تحتها ووراءها، ثم تعيدها لتكمل التنظيف. تصُفُّ بعضها فوق بعض لعمل ما يشبه المقعد، لتجلس عليه أثناء تناول طعامها، حتى أنها في ليلة شتوية ماطرة قارصة البرودة، عززت غطاءها بثلاثة أكفان حتى تصل إلى درجة من الدفء تمكنها من تجاوز المساء.

تداول الناس الأقاويل حول الفتاة، ولم يقبلْ أي منهم شراء بضاعتها الشؤم على حدّ قولهم، فصاحبها مات محروقًا مخلفًا نحسه ولعناته في كل ممتلكاته.

بعد شهور، وفي لحظة يأس وغضب، عبَّأت الفتاة عددًا من أكياس القمامة السوداء الكبيرة بأكفانها، وخرجت قبل بزوغ ضوء الفجر، ثم ألقت بها على جانب الطريق الرئيسي المؤدي للقرافة. عادت حينها متخفِّفة من بعض عبء حملته وحدها لشهور، شاعرة بقدر ضئيل مُرْضٍ من الراحة، وفي الصباح بعد نومة رائقة، فتحت باب الغرفة، فوجدت الأكياس مكوَّمة على العتبة تسد طريقها إلى الخارج.

هل تحرقهم؟ شيءٌ ما بداخلها أراد ذلك وبشدة، لكنها عجزت عن التنفيذ في آخر لحظة.

في تلك الليلة، حاولت الصغيرة استدعاء أكبر عددٍ ممكن من الحواديت. كانت تتشبَّث بذيولها قبيل النهاية، تستجديها للبقاء لوقت أطولَ حتى يشاركوها غرفتها الآخذة في الانكماش حول

روحها. أحسَّت لوهلة أن أعداد الأكفان تتزايد، والمساحات الفارغة من الغرفة توشك على الاختفاء، فأغمضَتْ عينيها وأطفأت العالم من حولها؛ أو هكذا حاولت.

في اليوم التالي، أثناء جلستها الحميمة فوق أعلى جذع من صديقتها الشجرة، راحت تراقب مواكب العزاء في الأسفل. مناظر اعتيادية تأقلمت منذ نعومة أظفارها مع رؤيتها كل يوم؛ لكن صبيًّا صغيرًا برفقة والديه أمام بوابة مقبرة مفتوحة، أثار اهتمامها بدرجة غير مسبوقة. كان الولد واقفًا على ساق واحدة، وفي لفة غريبة الشكل بين ذراعَي والده، وضِعت ساقه الأخرى. بضع كلمات تناثرت في الهواء من أفواه (التُّربي) أوضحت ما لم تكن لتفهمَه أبدًا، عن بتر ساق الصغير جراء تعرضه لحادث سيارة.

بقي المشهد محفورًا في ذاكرتها لسنوات بعدها. لم تنسَ ملامح وجهه قط، ولا تشبث كفه بدمية (الرجل الوطواط) وتلويحه بها في الهواء، وكأنها تشاركه الوداع القائم بين بعضه الحي وبعضه الميت. ربما كانت تلك الصورة تحديدًا هي أول ما أسعفتها به ذاكرتها أثناء مراقبتها المشهد المفجع لبتر الشجرة بعد بضعة شهور، الفرق أن أحدًا لم يشاركها الوداع القائم بين أجزائها المخلوعة بعضها من بعض؛ لا (رجل وطواط)؛ لا دمية!

في ذلك المساء صنعت الدمية الأولى..

قطعة صغيرة من أحد أكفانها مقصوصة على شكل عصفور، ومحشوة بقصاصات أخرى منه وحفنة من التراب وأوراق الشجرة

الجافة المفتتة، والكثير من الريش. استغرقت صناعة الدمية وتلوينها وبثّ روح القصة فيها يومًا كاملا، وفي فجر اليوم التالي.. طيَّرتها!

في الحواديت فقط يمكن إعادة حطام العالم إلى فاكهة، الأحلام إلى حديقة، الكوابيس إلى مغامرة، الأشرار إلى تنين مضحك، الأكفان إلى عصافير، والموت إلى شجرة عملاقة تخترق فروعها أبواب الجنة.

بمرور الوقت، وخلق المزيد من الحكايات والدمى، تناقصت الأكوام البيضاء الكئيبة في الغرفة باضطراد، ازداد البيت رحابةً حتى صار يتسع للفتاة وحدوتتها..

الآن.. أصبحت الصغيرة تعيش في بيتها، وتسكن فيه.

القِسْمُ الثَّالِثُ: (الغُرفَةُ المُغْلَقَةُ)

«ربما لو لم يكن هذا الجدار؛
ما عرفنا قيمة الضوءِ الطليق»

أمل دنقل

***

(تقرأ في هذا القسم)

(10) (نكوص) 63
(11) (أبناء الظبية)..... 75
(1) عزيز..... 76
(2) نعمات..... 81
(3) عزيز..... 101
(4) آفرين 105
(5) جلال..... 116
(6) نعمات..... 121
(7) عزيز..... 131

(10) (نكوص)

أقطع الطريق المؤدي إلى البيت بعجالة، تكاد خطواتي تتعثر في تراب الأرض، وذيول القطط، وأشعة الشمس الضامرة المتبقية في قعر اليوم.

أشعر ببرودة أصابع قدمَيَّ والخدر الخفيف المنبئ باقتراب الموعد. أنظر إلى السماء بعتاب، لماذا بدأ إظلامها مبكرًا هذا المساء؟

لم يصمد الأحمر البرتقالي طويلًا كعادته، تبدد في رمادية مخيفة، موشكة على اسوداد كامل، وأنا بعد لم أصل لغرفتي.

أُثَبِّت ناظري على الرمادي وأركض، أطارده بكل ما أوتيت من خوف. يرمقني أصحاب المحال بشارعنا باستنكار أو سخرية، تضحك فتاتان، ويحاول شاب إثارة إعجابهما بقذفي بعلبة (بيبسي) فارغة.

لا أهتم، أواصل الركض متخطيًا كلّ المحدقين في الشارع، ثم أبي وأمي وأختي المحدقين في البيت، إلى أن ألقي بنفسي داخل الغرفة وأغلقها، في اللحظة ذاتها التي يتبدد فيها آخر أثر للنور من السماء.

أُحكِم قفل الباب بالمفتاح، ثم النافذة والستائر. هذا سرٌّ لا ينبغي كشفُه لأي إنسان على وجه الأرض، لعنة كُتِب عليَّ العيش معها وحيدًا في غرفة مغلَقَة ومظلمة.

أُبصر كفي الممسكة بالستارة ترتعش، أرى الشعيرات النابتة عليها تتلاشى، تزداد بياضًا وطراوة، وتتضاءل شيئًا فشيئًا. المسافة بيني وبين الجدار المقابل تتسع، وخطواتي تجاه المرآة تضيق.

الخطوتان اللتان كانتا تفصلان بيننا صارتا خمس خطوات، أمشيها باضطراب متعثرًا بملابسي التي ترهلت فوق جسمي. أصل إلى المرآة وأنظر، لأجد الرجل الثلاثيني الذي كُنتُه منذ لحظات، قد تحوَّل إلى طفل في السابعة!

تسع ساعات وبضع دقائق من الظلام. لطالما كرهت الشتاء بسبب ساعات ليلِه الطويلة التي أقضيها خائفًا ووحيدًا. وحدي أعرف أن المصابيح الكهربية لا تمحو الظلمة، ضوؤها مجرد خدعة بصرية تتحايل على إدراكنا للعالم. الظلام مقيم في الليل مهما حاولنا تلطيخ وجهه بالنور الصناعي، يتغلغل في مسامات الأشياء، ويغير من تكوينها فتمسي سوداءً كالعدم. هم يصدقون الصور الملوَّنة التي يلصقونها فوق الحقيقة السوداء؛ لكنني أراها بوضوح، لذلك لا أشغل إضاءة غرفتي رغم هول ما أشعر به؛ لا فرق.

تمر الساعات بثقل موجع، وأنا متكور على نفسي في فراشي المبلَّل. متدثر بلحاف شتوي حتى في أشد أيام الصيف قيظًا، الأغطية القطنية الخفيفة تصلح لتزيين الغرف لا لحماية الصغار، وأنا صغير عالق في اليقظة، منذ أن بدأت لعنة تحولي الليلية. بوابة النوم أُوصدت أمام عقلي إلى الأبد.

صار الصباح بمثابة نومة صغير المساء، والمساء نومة رجل الصباح، ولأنني هذا وذاك، فأنا مستيقظ على الدوام.

على الرغم من رائحة البول والعرق الخانقة في مكمني هذا، لا أقدر على زحزحة الغطاء عني ولو قليلًا. ضوضاء مكتومة تحيط بفراشي، أظنُّ أن السماء ترعد في الخارج؛ لكن بإيقاع منتظم كالنبض، وأصوات الناس في الشارع تصل لأذني بترددات شائهة. أصوات تشبه صراخ الغارقين لحظة تدفق المياه في جوفهم.

أستشعر طعم الدماء على شفتيَّ من أثر قرض أظافري والجلد المحيط بها، فتثير فيَّ جوعًا غريبًا لشيء بعينه، دون أن أعرف كنهه؛ لكنني الآن حيث لا ماء ولا طعام ولا هواء.

***

الفجر أخيرًا...

يعاودني إحساسُ الخدر في أطرافي، يرتعش جسدي وتنضغط أحشائي جميعها ثم ترتخي، تنقطع أنفاسي للحظات قبل أن أنفض عني اللحاف، وكأنني أزيح جثةً ثقيلة، وأهرب منها ومن عَدوَى الموت المحيطة بها.

أقلب كفَّيَّ أمامي فأبصرهما كبيرتين بشعيراتهما الخشنة وعروقهما النافرة. أعرف جيدًا أنني الآن شاب مكتمل الرجولة. رغم ذلك أقفز نحو المرآة لأرى بعيني ما أفهمه بعقلي. أهمس لانعكاس صورتي في المرآة:

«لقد عدت من المعركة؛ صباح الخير!»

لم يكن صعبًا إقناع الجميع بأنني مُلتزِمٌ بروتين خاص صارم، وغير مفهوم أحيانًا: النوم فور غروب الشمس، غسل فراشي وملابسي بنفسي فجرًا، عدم التزامي بأي مواعيدَ أو التزامات اجتماعية ليلًا؛ مهما بلغت من أهمية، رفضي التام لفكرة الزواج!

حمل لي الجميع من المحبَّة ما مكَّنهم من اعتياد ثم تجاهل غرابة أطواري، ورغم هذا ظلَّت حقيقة أنني رجل بنصف يوم حائلًا بيني وتوطيد علاقاتي بأي أصدقاء أو أقارب؛ أو بأي امرأة. صرت على مسافةٍ شاسعة من الجميع، أُلوِّح لهم ويلوحون لي؛ لكن الجهد الذي يبذلونه في الصياح لتصلَ أصواتهم إليَّ في معتزلي البعيد، كان مستحيلًا مجهِدًا وأكثرَ من كافٍ للتوقف والمغادرة. كل الطرق كانت تؤدي إلى الرحيل، وأنا... لم يؤدِّ إليَّ طريقٌ قط.

تستقبلني أمي كل صباح بالدهشة ذاتها وبالإعجاب ذاته، وبالكلمات نفسها:

«العريس وصل!»

«برفاناتك جايبة آخر الشارع!»

«يا رب أعيش لغاية ما أشوفك منور كده في الكوشة!»

«هي البنات عميت؟!»

يبتسم وجهي ابتسامة قضيت وقتًا طويلًا في التدرب عليها. الطبيعي أن تصف الابتسامة الشخص، وليس وجهه فقط، أن تقول: ابتسم فلان، وليس: ابتسم وجهُ فلان؛ لكن ما يحدث معي مختلف. لقد تعلَّمت بالتجربة أن فلانًا الذي أكونه لا يشترط أن يتصف

بالصفات نفسِها لوجهه وجسده وصوته وسلوكه. لقد عشت أنتقي الصفات وأقتنيها كما أقتني الساعات والأحذية والسيارات والأجهزة الباهظة، أصنع منها جميعًا درعًا واقيًا ليحميني. أنا لا أتظاهر ولا أنافق، الأمر أعقد من هذا، هو أشبه ما يكون بالتحكم عن بعد، أجل؛ المسافة بيني وبين جسدي كالمسافة بين طائرة بدون طيار، وشخص يجلس في بئر مظلم وفي يديه جهاز التحكم بها عن بعد.

«هي البنات عميت؟!»

لا يا أمي، كل البنات تحدق في الطائرة أينما ذهبت، هن وأنتم والجميع؛ لكنني في البئر وحدي.

أتباطأ في طريقي للمستوصف. تعمدتُ اليوم أن أترك سيارتي وأتمشى؛ لعل تفاصيل الشوارع والناس وواجهات المحال تمحو بعض آثار الليلة الفائتة. الشاب الذي قذفني بعلبة (البيبسي) أمس ينفجر ضاحكًا، يبصق تجاهي، ويسُبني طاعنًا في رجولتي.

«الدكتور الـ(...) جه»

أتجاهل النظر نحوه وأكمل طريقي؛ لكن الحقيقة أنني أتجاهل النظر مباشرةً في وجه أي شخص أقابله، ربما تنظر عيني، أما أنا فلا!

كان تطوعي في المستوصف ممارسًا عامًّا هو الطريقة الوحيدة التي تمكَّنت بها من ممارسة المهنة دون أن ألتزم بنبطشيات، ودون أن يُفرَض عليَّ تحضير الرسالة في موعد محدّد. بقائي في البيت بعد الغروب لم يسمح لي بتحقيق أكثر من هذا. وجده البعض عملًا

بطوليًّا، رغم ما أثاره فيَّ أبي من حسرة وغيرة من أبناء أصدقائه الاستشاريين والمدرسين بكلية الطب.

***

كان يومًا عاديًّا بنهاية غير عادية، في الساعة الأخيرة قبيل دخولي الغرفة، وفور عودتي من المستوصف، لاحظت الأنوار المضاءة في الصالون، مشيت بخفة حتى لا أتورط في جلسة عائلية لا طاقة لي بها، وفي الغالب ستكون ذات صلة بعروس ما تحاول أمي توريطي معها أو توريطها معي. ولأنها ليست المرة الأولى فقد تجهزَتْ أمي جيدًا، واصطادتني أثناء تسللي، وكما توقعت، وجدت نفسي أمام أسرةٍ لطيفة تشبه أسرتنا بدرجة لافتة، والفتاة تجلس أمامي مباشرةً بثقة غير معتادة في المواقف المشابهة. بادرتني بالسلام، ولم تصمتْ بعدها لحظة واحدة. تكلمت أمي عني وحكت لهم ملخَّصًا بائسًا لقصة حياتي، وأنا لم أفتأ أراقب الساعة والنافذة المفتوحة على سماء توشك على الإظلام؛ لكنَّها تجاهلت عدم اهتمامي الظاهر، وواصلت الثرثرة...

إلى أن صمتت فجأة، وأطالت النظر إلى كف يدي... لوت عنقها واقتربت قليلًا، ثم أشارت إلى أطراف أصابعي، وسألَتْ:

«إنت بتقرقض صوابعك؟!»

شلَّني السؤال تمامًا، لا أذكر أن أحدًا لاحظَ الأمر من قبل، لم يمسك أي إنسان طرف الخيط الذي ينتهي تحت اللحاف العطن في غرفتي؛ بل لم يقتربْ منه ويلمحه من بعد. ربما لم يعنِ السؤال

لها شيئًا يُذكَر؛ لكنه كان لي أشبه بالتعرية وهتك الستر، حتى وجهي الذي أحركه بجهاز تحكم خفي تعطل عن العمل، لم تتمكن ملامحي من الابتسام، ظلت ثابتة واجمة، وظلت الفتاة في الوقت ذاته ثابتة مبتسمة، إلى أن قاطع جلستنا العجيبة صوت أمي، يسألها للمرة الرابعة عن دراستها في الكلية.

أطراف أصابعي.. تذكرت.. السماء...

أنظر إلى النافذة المنفرجة فلا أبصر سوى مسحةٍ رمادية قاتمة للغيوم، وفي الوقت ذاته يبدأ الخدر في الزحف على أصابعي ثم كفي فمعصمي؛ فأقفز كالملدوغ مسرعًا الخطى نحو غرفتي، وفي أذني تتردد ضحكاتهم المفتَعَلة:

«وقت النوم؛ إنتو عارفين؟!»

«أيوه الطقوس؛ سمعنا عنها!»

«.....»

***

ساعة من الليل مرت وأنا واقف في تجاسرٍ أمام المرآة، متحديًا كلَّ الأشياء المظلمة في غرفتي المنارة، متحاملًا على صدري المرهق من فرط الحزن والخوف. ساعة قضيتها محدقًا في وجهي الطفل، وجسدي الضامر، وملامحي التي لا آلفها أبدًا رغم رؤيتي لها كلَّ مساء. لماذا أحس بأن هذا الانعكاس لم يعد مطابقًا لصوري في سن السابعة؟ يشبهه كثيرًا لكن لا يطابقه. أراه أكثر طراوة وسذاجة، أُقلِّب في صوري فأتيقن من شكٍّ كنت أحاول تجاهله...

الآن... أنا في الخامسة من العمر!

أغلق النور بسرعةٍ وأقفز تحت اللحاف. تاركًا صورتي تحدق بي من بعيد في المرآة. وحدها المرآة تعرف سري، ووحدها من سمحتُ لها بالاحتفاظ بي في قلبها.

تبدأ الضوضاء المكتومة في مداهمة مسامعي، والرعد المنتظم يدق فوق رأسي؛ لكن فكرة جديدة مثيرة تطرأ على عقلي للمرة الأولى. سأخلق حكاية وألج إليها من شق المخيلة، قد تكون مضيئةً ملوَّنة، لطيفة مؤنسة، لها سلالم طويلة ولينة يمكن مدُّها لصغيرٍ في بئر.

وبالفعل، تبدأ الساعات في المرور بشكل أقل قساوة، أختطف العالم كلَّه وأعيد تدويره وتأليفه ووشمه باسمي. والفتاة التي لاحظت طرف خيطي الرفيع، جعلتها تحكم قبضتها عليه، ثم شددته فاختَرَقَت الغرفة، واللحاف وعالمي الجديد.

في بداية الليلة، رأيت نفسي أشبه ما يكون بسكان الكهوف الأوائل، الذين قضوا ساعات وأيامًا في الظلام، ليرسموا على صخور الأسقف والجدران...

وفي آخر الليلة رأيت نفسي رجلًا.

***

لم تتوقَّع أمي في اليوم التالي أن أسأل عنها، ولم أتوقع أنا. تحاول التملص من الإجابة، وتشتيت انتباهي عن الموضوع؛ لكنني أصر بسؤالٍ واضح، يتطلب ردًّا واضحًا، فلا تجد بُدًّا من مصارحتي:

«مفيش نصيب!»

لكنها تبدي فرحًا وحماسة باهتمامي غير المسبوق بفتاة أو بفكرة الارتباط ذاتها. أعرف أن عقلَها في هذه اللحظة يتحول إلى أرشيف كبير، تبدأ بالبحث فيه بمنتهى الدقة والمنهجية عن بدائل مناسبة وسريعة لعروس الأمس. عليها أن تغتنمَ الفرصة وتحقق الهدف، قبل تراجعي وعودتي إلى الحجج المعتادة والتسويف غير المبرر.

وما يدهشني حقًّا هو أنني لا أُسوِّف، ولا أختلق الحجج؛ بل ولا أفكر في سيناريو محتَمَل يمكن أن يحقِّقَ قصة ارتباطي بامرأة في النهار، واختبائي منها في الليل.

كلّ يوم تُحضِّر أمي لموعد جديد، وكل ليلة ألحظ ذاك الاختلاف الطفيف في شكلي وسني قبل أن أطفئ أنوار الغرفة، وأستغرق في حكاياتي المسائية، فأضمد بها كل ندوبي، وأتعافى فيها من قلقي وارتباكي، والأهم: أنني أوطد فيها علاقتي بها!

أظن أنني قابلت أكثرَ من عشر فتيات، جُلّهن رفضنني، وقلة منهن رفضتهن أمي، وفي كل مرة أستقبل النتيجة بما تصفه بالبرود واللامبالاة الغريبة؛ لكنه لم يكن برودًا. لقد كنت أعود كل مرة بعروسي، أدخل بها غرفتي، ونقفز معًا في حكاية. كانت الفروق طفيفة بينهن، بعد أن نتخطى عتبة الغرفة، ومعدومة بعد أن نتخطى عتبة الحلم. صارت أصوات الرعود المنتظمة والضوضاء المكتومة بالخارج غير ذات أثر عليَّ، حتى بعد أن وصل سني لثلاث سنوات، ثم اثنتين.

لكن يظلُّ ذلك النكوص في العمر يخيفني، إلى ماذا يمكن أن يؤول الأمر؟ أذكر بنجامين بوتون عندما نكص في العمر حتى عاد رضيعًا، وأتخيل نفسي مثله وحيدًا في صوبتي العطنة، ثم أتذكر الحكايات، لو أن مخيلتي ستبقى على حالها، لن أكترثْ كثيرًا لعمري حينها؛ لكن كيفَ ستتقبل هي كل تلك المفاجآت؟

صارت فرحتي بفكرة زواجي رغم كل التعقيدات تدهشني، وحماستي للإسراع في إتمامه تدهش أمي. أنا أعرف أن الوقتَ يداهمني، أعرف أنها يجب أن تكون جواري عند وصولي لآخر محطة؛ لكنني لا أدري لماذا، وليس عندي أدنى فكرة عن ماهية تلك المحطة الأخيرة.

يبدو أن الليلة مختلفة!

أسقط أرضًا في غرفتي فور اختفاء الشمس. الوهن والخدر اللذان كانا يصيبانني في لحظات تحولي، لا يعبراني ويمضيان؛ بل تتشربهما عضلاتي وأعصابي، فيصيبني ما يشبه الشلل. ما زلت قادرًا على التحرك؛ لكنه نوعٌ آخر من الحركة، خارج عن سيطرتي ورغبتي. أنتفض؛ أرتعش؛ أنفجر صارخًا رغمًا عني، فأدرك أن عمري الآن بضعة أيام!

أعجز عن الوصول إلى الفراش، عن الهروب من الظلام، أعجز حتى عن جعل جسدي يستسلم في وضعٍ مريح، عنقي لا يطاوعني، ولا يقوى على عدل رأسي، والانتفاضات اللاإرادية لا تنقطع. أشعر بشيءٍ يشبه البرد، شيء يشبه العطش، شيء يشبه النعاس،

شيء يشبه كلَّ ما هو مُوحِش ومخيف؛ لكن الكلمات جميعها تتفتت فوق أحاسيسي وتتلاشى.

هذا هو ما لا يمكن وصفه!

***

أشكر الله على الصدفة التي جعلت تلك الليلة الرهيبة هي ليلتي الأخيرة التي أقضيها وحيدًا من دونها. يحل المساء بوعد غامض ومطموس الملامح؛ لكنه رغم ذلك مريح وبهيج. الليلة سنكون معًا، لا في عالم الحكايات الذي بنيته لبنة لَبنة تحت اللحاف المبلّل؛ بل في الواقع الذي أخفيته عن العالم بأسره طوال حياتي. اليوم سيصير الصغير في عمق البئر مرئيًّا. ستربت رأسه يد رفيقة وحانية، وتجسر تلك الهوة السحيقة بينه وبين العالم.

ها هي الشمس تنزلق من السماء، والخدر يعود. ما يعتريني الليلة مختلف عن كل ما حدث قبلًا، حتى الانتفاضات وصراخ المواليد الذي كان يصدر مني دون إرادة بالأمس اختفى. أشعر بنفسي أتلوى كثعبان على الأرض والجدران. يبدو أنني لم أتوقف عند المحطة التي توقف عندها بنجامين بوتون. لقد واصلت الانمساخ إلى أن تحولت إلى حبل سُرّي.

وعيي وذاكرتي ورؤيتي الليلة لا يعملون بالشكل المعتاد. لم أعد أرى شيئًا من الغرفة. فقط أشم رائحة حبيبتي، وأقتفي آثارها في كل مكان.

أظن أنها تبتعد كلما اقتربت!

هل تهرب مني؟

لكن لماذا؟!

أواصل البحث مدفوعًا بشيء أكبر من الحب، شيء أقرب ما يكون لغريزة البقاء. لو لم أجدها الآن لن يبقى مني شيء في الغد على الأرجح، ولهذا أسرع وأسرع إلى أن أصل.

أشعر بخوفها يتفجر في وجهي، ولا أفهم السبب.

لماذا لا تدرك مقدار حبي واشتياقي لها؟ لماذا لا يطمئنها كل هذا الحب؟

لم يعدْ لديَّ ذراعان لأتمكن من معانقتها بهما، فألتف حول رقبتها بكل ما أملك من قوة وافتقاد. أشعر بأنفاسها تتسارع، تضطرب، ثم تتباطأ وتتلاشى..

لم تعدْ تهرب مني الآن. لم تعد تتحرك، ولا تتنفس. أظن أنها اطمأنَّت أخيرًا لوجودي، وأحست بالارتياح نفسه الذي أحس به. تسكن أصوات الرعد والضوضاء المكتومة أخيرًا، وأشعر بأن ظلامها رائق وجميل.

أظن أنني قادرٌ على العيش في ظلامها هذا إلى الأبد!

(11) (أبناء الظبية)

(1) عزيز

لقد عرفتُ الكثير عن الموت؛ لكنها المرة الأولى التي أراه فيها مرأى العين. حتى أبواب بيتنا المحكمة الغلق لم تقدر على منعه من الدخول. ربما تسلل من الشقوق الرفيعة في النوافذ الموصدة، مع بصيص النور الذي أطارده في كل أركان المنزل، أو ربما هو قوة كامنة في أجسامنا منذ البدء، وفي لحظة ما تقرَّر أن تتحرر من كمونها، فتختطف الروح وتنطلق بها نحو الأعلى.

أنظر إلى جثة أبي الملقاة أرضًا، وإلى عُمَر المنكفئ فوقها، يبكي بحرقةِ الأطفال وقلة حيلتهم، ثم يصرخ ويضرب الجسد المسجّى علَّه يعود. أستشعر إحساس الذنب يصفعني على وجهي حينما أبتسم لباب الشقة المغلق رغمًا عني، وأنا أبصر الطريق الفاصل بيننا ممهّدًا تمامًا وخاليًا من العثرات، فتعيدني الصفعة إلى المشهد ذاته من جديد.

لقد مات أبي صباح اليوم، تلك حقيقة لا يمكن الفرار من بؤسها، رغم كل ما يلحق بها من أمنيات يمكن أن تتحقق. فهو أبي وصانعي وخالق كوكبي الصغير الذي لم أعرف سواه، الأرض الخشبية والسماء الإسمنتية التي عشت تحتها ثلاثين عامًا كاملة، كانت من خلقه هو واختياره، وأنا...

لم يكن لي خيار في أي شيء.

الذنب مرةً أخرى! كيف أقف هنا لأفكر في كل ذلك بدلًا من أن أجهش بالبكاء على كفه البارد؟ كيف لا أربت على كتف عمر وأخبره ألا يفزع، وأن الأمور ستكون على ما يرام؟ مسكين عمر، توأمي الذي جمعني به رحم واحد، ثم وُلِدنا بعدها كُلٌّ في عالم؛ أحدهما يدور في فلك أبي، والآخر لا فلَكَ له. ربما لهذا السبب لا أشعر بالضياع نفسِه الذي يحسه هو الآن. لقد انهار عالمه بالكامل في لحظة، وأفلتته اليد الوحيدة التي كان يتشبث بها طوال ثلاثين عامًا.

صار وحيدًا في الفراغ، وحيدًا بأفظع صورة يمكن تخيلها.

«ماذا سأفعل الآن؟»

هل قالها هو؟ أم كنت أنا القائل؟ لا يهم، على كل منا أن يجد جوابًا مناسبًا لذلك السؤال الكريه المرعب الغامض، السؤال المثير الثوري البديع، السؤال البرزخي الذي يفصل بين الموت والحياة، أو بين الحياة والموت.

«ماذا سأفعل الآن؟»

كان يزداد اقترابًا من الجثمان، وأزداد ابتعادًا عنه، بالزئبقية ذاتها التي شكلت علاقتنا على مدار عقودنا الثلاثة. جسده الهزيل مستمر في الانكماش والتكور في هالة الموت هناك، يتمنى أن تشمله وتنقذه من وحدته القادمة، من الفزع الآتي من خلف الأبواب المغلقة. تنهمر من عينيه الدموع ويسيل من فمه اللعاب، يلطم وجهه ويخمشه، حتى يزاحم وجع جسده آلام روحه علَّها تتوارى.

يصرخ: «أبي..!»

ويتبع صراخه صمت موحش، فيعاود الصراخ: «عزيز... أين أنت يا عزيز؟»

تغمرني الشفقة على هذا المسكين المفجوع، فأخطو إلى داخل هالة الموت وأجلس لصقًا به وبأبي. ها نحن نلتحم مرة أخيرة، قبل أن تنشرنا رياح العالم الجديد كُلًّا في طريق. أنا سأختار طريقًا نحو الأعلى، وأبي سيسلك طريقه نحو الأسفل.

تُرَى... أي طريق ستسلك يا عمر؟

«ماذا سأفعل الآن؟»

أحدق في وجهه الذي هو وجهي.

أتجاهل كل العالم الذي تتقافز تفاصيله في مخيلتي، وأعيد وعيي إلى مركز هذا العالم -أبي- لم أفكر كثيرًا قبل أن أجيبه بأكثر الإجابات بديهية.

«سندفنه في التراب!»

ولم يفكر كثيرًا قبل أن يصرخ في وجهي:

«أي تراب؟!»

«سنعرف طريقنا عندما نخرج من هنا!»

لم يكف عن البكاء والصياح، وأنا أطفو فوق بركة الدموع تلك، أحس بها تحرق جلدي وتصارعني لأغرق؛ لكنني أستمر في الطفو. أتوجع وأواصل السكون؛ خوفًا من أن يبتلعني هذا الظلام إن تحركت حركة واحدة خاطئة.

أواصل الصمت والمراقبة، فيقول:

«سندفنه في غرفته... سأهدم الجدار الفاصل بين غرفتينا وأبني به لحده... سيظل هنا... وسنظل هنا... لم يتغير شيء... لن يتغير شيء... سنبقى معًا يا عزيز... سنبقى هنا معًا... عَزيز! عزيز! عَزيز... أنت معي هنا... لستُ وحدي يا عزيزي... لستُ وحدي مع جثة أبي في هذا العالم... أنا معك في بيتنا... وأنت لن تتركني كما تركني هو... سنصنع له أجمل لحد... وسنعيش بجواره كما أراد دومًا... لن يتغير شيءٌ صدقني لا تخف... أنت معي وأنا معك وأبونا معنا... لن يتغير شيء يا عزيز... لن يتغير شيء!»

«لا يا عمر، لقد تغير كل شيء بالفعل!»

«اصمت!»

«أنا صامت بالفعل؛ لكنني لن أظل هنا، سنولد اليوم لنعيش كما تعيش مخلوقات الله، كما يعيش الناس والظباء والوحوش، بين السماء والتراب، وأبي... سيُدفَن بشكل لائق في الأرض... هناك... بالخارج.»

«العالم هو أنا وأنت وأبي وهذا البيت. ما يوجد في الخارج هو الجحيم، الجَحيم فقط ولا شيء آخر... كيف تنكر فضله بتلك الوقاحة وتخالف إرادته فور رحيله؟! كيف تنسى ما حدث لأمنا في الخارج؟! سأبقى هنا... ستبقى هنا!»

أراقب جسده الكسيح في المرآة، يحاول أن ينهض بصعوبة. ساقاه المقوستان ترتعشان، ورقبته المعوجة تحاول أن تستقيم فلا

تقدر. يلتقط عكاز أبي ويتشبث به ليقف. يحني ظهره ليتناسب طوله مع قصر العصا، فيبدو كأنه شيخ يترنح. يحدق في رأسه الأصلع وجسده الشّائه. أحدق في عينيه الممتلئتين بالفزع، وأبكي.. ويبكي..

«ستساعدني في بناء اللحد؟!»

«لا!»

«ستساعدني في حمل أبي... لن أتمكن من فعل هذا وحدي!»

«لن أفعل!»

يصرخ:

«لعنك الله يا كلب!»

أتجاهله، وأسرع نحو المطبخ. أحضر سكينًا حادًّا وأتوجه به صوب باب المنزل، وأبدأ في الحفر حول القفل، ومن خلفي أسمع خطواته الثقيلة تقترب مني بأقصى ما تستطيع. يحتضنني من الخلف وتزحف كفّه نحو السكين إلى أن يمسك بنصله الحاد. يحكم قبضته على قبضتي.. فتتقاطر منهما الدماء.

آخر ما رأيت قبل أن أتمكنَ من فتح الباب، كان رسم يده المطبوع بالدم على الحائط، وآخر ما سمعت كان صرخة يائسة باسمي:

«عزيز!»

(2) نعمات

بدأ الأمر حينما تعرفت على آفرين. كنت حينها في التاسعة، أخدم مع أبوَيَّ في البيت الكبير بقرية ميدوم في بني سويف، والذي حلَّت هي عليه كفرد جديد غير مرغوب فيه، حينما تزوجها الابن البكر لعمدة القرية وشيخها المهاب. كان حدثًا مستهجنًا من الجميع، من أبيه وأمه وإخوته، من أقاربه وجيرانه وخدمه.

سرَت الثرثرة بين البيوت خلال يوم وليلة. قرر الجميع نبذ العروس القادمة من (بلاد برة)، ومعاملتها بما تستحق من سوء. فابن العمدة يتمتع بحصانةٍ موروثة عن أبيه؛ تمنعهم من انتقاده أو مضايقته، أما الغريبة فلا تملك سوى ألفِ سببٍ لتلقِّي الكراهية مباشرة في وجهها المكشوف.

هي آفرين الفتاة المغربية التي تعرف عليها ابن الباشا في رحلته إلى المغرب. لم يعلم أي منَّا سببًا لتلك الرحلة، ولم يكترث أحد للأمر، فقد طغى حضورها على جميع علامات الاستفهام، ولم تتبقَّ سوى علامة واحدة كبيرة: كيف يتزوج ابن الشيخ تلك الفتاة السافرة التي ترتدي البنطلون القصير والتيشيرت الضيق كالخواجات الكفرة؟

استفز جمالها الصبياني الرجال والنساء على السواء، بقصة شعرها (الألاجرسون)، وجسدها النحيل الضئيل كفتى في المرحلة الإعدادية. تتجول في الشوارع بوقاحة مع كاميرا كبيرة

معلَّقة في رقبتها، وتتمشى بلا رفقة وسط الغيطان، تصور الفلاحين وتمازحهم وتنهال عليهم بفيض من الأسئلة عن كل شيء: طبيعة عملهم، وعلاقاتهم بأهل بيوتهم، أنواع المحاصيل، وتضاريس القرية، وأجرتهم اليومية ومدى رضاهم عنها، نسائِهم وكيفية التعامل معهن في الزواج والتعليم والميراث!

كانت قنبلةً تسير على قدمين، وتواصل الانفجار مرةً تلو الأخرى في وجوه الجميع.

لم يمنعها امتعاضهم من المواصلة، ولم يمنع ابن الشيخ من سماحه لها بذلك.

وعاد الجميع ليسأل جهرًا:

«هل فقد الشاب نخوته إلى تلك الدرجة المخزية؟ أم أن هناك سببًا آخر؟!»

بالتأكيد هناك سبب آخر؛ لقد سحرته الفاجرة، وليس هناك مجال للشك في ذلك.

في قريتنا لا يستغرق الأمر أكثر من يوم حتى تعرف كل البيوت خبرًا ما، ولهذا تغير لقب آفرين من (الفاجرة المغربية) إلى (الساحرة المغربية)، في يومين وليلة.

انقسم الأهالي إلى قسمين؛ أحدهما يخاف حتى من النظر مباشرة في عينيها أو المرور بجانبها في الطريق، والآخر يتربص بها ويراقب تحركاتها بفضول ودأب، لينال سبق الكشف عن سرِّ الساحرة الملعونة الذي تخفيه عن الجميع.

وبالفعل، بعد فترة قصيرة، أكد عدد من شباب القرية رؤيتهم لها أكثر من مرة تتوغل في المدافن، وتلتقط بالكاميرا خاصتها صورًا كثيرة للقبور. تجلس وسطها لساعات وتقرأ كتبًا غريبة، والأدهى من ذلك أنهم شاهدوها تمتطى حصان زوجها وتركض به في الصحراء، إلى أن وصلت إلى هرم ميدوم، وكالعادة التقطت عديدًا من الصور؛ لكن المرعب في الأمر أنها دخلت الهرم... وحدها تمامًا! كيف يمكن لامرأة طبيعية أن تقوى على فعل هذا؟ وما احتمالات أن يكون لمثل تلك التصرفات سبب طبيعي؟

لم يعد هناك مجال للشك، لقد كانت المغربية تصنع الأعمال السفلية لسكان القرية، وتخبئها في القبور وفي الهرم!

اتفق الأهالي على التجمع أمام بيت الشيخ العمدة، ومصارحته بذلك الأمر الجلل الذي اكتشفوه، وبرغبتهم في طرد الفتاة من القرية بأسرع ما يمكن، مستغلين فرصة الوليمة التي يقيمها في الأرض المجاورة لبيته، احتفالًا بعقد قران ابنة خادميه المخلصَين، والتي أشرف هو على تربيتها منذ مولدها إلى أن أتمت عامها التاسع وصارت جاهزة للزواج، ولإقامة بيت خاص بها، وقد كنت أنا تلك العروس.

لن أنسى أبدًا صدمة آفرين المبالغ فيها حينما عرفت بأمر زواجي، ولن أنسى نظرة الغضب في عينيها الدامعتين حينما تناهى إلى سمعها أن (دُخلتي) ستكون (دُخلة بلدي)، وأن أمي وحماتي تدعوان بعضًا من نساء العائلتين للحضور والفُرجة!

لم تتكلم وقتها، فقط احتضنتني بقوة، ثم أمسكت برأسي بين كفيها، نظرت بثبات في عيني وقالت: «لا تخافي يا حبيبتي؛ لن يحدث هذا!»

أذكر أن قدمَيَّ وقتها لم تحملاني من الخوف، ارتميت أرضًا وتجمعت حولي جماعة من النساء، في حين راقبتها من بين أطراف جلابيبهن وهي تركض إلى مكان ما.

ها هي الساحرة تتوعدني بإفساد ليلتي، بمنتهى الوضوح دون أية مواربة.

لم أخبر أمي بالأمر، ولا أحدًا سواها. أسررت الخوف في صدري، وأحطت خصري بحزام مصنوع من وريقات صغيرة مكتوبة عليها آيات قرآنية، كان شيخ ما أهداني إياه في وقت سابق ليحصنني من شياطين الإنس والجان.

وبعد أن انتهت مشقة اليوم ولم يبقَ سوى الاحتفال و(الدُّخلة)، بدأت أصوات أحاديث الرجال تتعالى شيئًا فشيئًا أسفل البيت، ثم تحول الحديث إلى صياح، والصياح إلى عراك بين بعض رجالات القرية وغفر العمدة، وبعدها بدقائق، أبصرتُ من النافذة الكراسي والطاولات التي أولم عليها الشيخ للأهالي تتحطم وتتطاير أجزاؤها هنا وهناك، وتلى ذلك مباشرة أصوات الطبنجات تدوي في سماء القرية.

لم أصدقْ أن هذا يحدث لي في ليلة عرسي، ولم يعدْ لدي أدنى شك في أن السبب هو العملُ الذي عقدته لي آفرين.

نزلت أمي ومن كان معها من نساء ليشاهدن المعركة من مواضع أقرب، ولتصل أصوات ولولتهن إلى أسماع الرجال ربما يستردون صوابهم؛ وأنا بقيت وحدي في الغرفة، يكاد قلبي يتوقف من فرط الفزع. رحت أنزع ما يلف جسدي المرتجف من أكوام القماش، لطمت وجهي وأبصرته في المرآة وقد سال فوقه الكحل والألوان. كان شكلي مخيفًا، وكل ما يحدث حولي مثيرًا للفزع. لم أتمكن من التوقف عن البكاء، إلى أن شعرت بشخص ما يحتضنني بقوة من الخلف، كانتا ذراعين قويتين تمسكان بي وتمنعاني من الحركة. لم أفهم ما يحدث حتى ألصقت شفتيها بأذني وهمست:

«شششششش... لا تخافي؛ أنا هنا!»

في تلك اللحظة فقدت الوعي، وأظلم من حولي العالم.

***

أفقت بعد مدة لم أتمكن من تحديدها في مكان لم أتمكن من تمييزه، وبعد لحظات أدركت أني مستلقية على المقعد الخلفي لسيارة تقودها آفرين، وبجوارها يجلس ابن الباشا صامتًا متجهّمًا كعادته.

بدا الطريق مظلمًا تمامًا، حتى أني لم أستطع رؤية حدوده من الجانبين، ورغم ذلك ظلت تقود بمنتهى البراعة والسرعة، وتدندن بلحن غريب وكلمات لم أسمع مثلها من قبل؛ مختلفة عن لغة أهل قريتنا وأهل البندر. لم تكن حتى لغة واحدة؛ بل اثنتين. رحت أستعيذ بالله من شياطين الإنس والجان، وأقرأ سرًّا كل ما أحفظ من

القرآن، دون أن أقوى على طلب النجدة أو حتى سؤالها أو زوجها عن وجهتنا.

انكمشت في طرف المقعد إلى أن لاحظت هي أني أفقت. ابتسمَتْ وبدأت تحدثني في المرآة باللغة الغريبة ذاتها، وأنا أبكي بفزع من هذا الكابوس الرهيب، لقد أحرقت قريتي وأفسدت زيجتي ومستقبلي بأكمله في ليلة واحدة، وها هي مستمرة في ذلك الشيء اللعين الذي تقوم به، لم تزل تحاصرني بتعاويذها الشيطانية، وربما بعد فترة أصير كابن الباشا مسلوبة العقل والإرادة، تحركني هي كلعبة دون أن أملك من أمري شيئًا.

قطعنا طريقًا طويلًا عرفت منه أننا غادرنا القرية؛ بل والمحافظة كلها، والتي لم أكن قد غادرتها قط طوال حياتي. رأيت شوارع وأبنية ومحلات كالتي أراها في مسلسلات التلفزيون، جعلني انبهاري بها أنسى قليلًا ما أنا فيه، ثم توقفت السيارة أخيرًا أمام إحدى تلك الأبنية في حي هادئ وجميل، عرفت فيما بعد أنه حي الزمالك، ثم صعد ثلاثتنا مع قليل من الحقائب متوسطة الحجم إلى شقة في الطابق الثالث، وأنا لم أملك خيارًا، لو هربت الآن فإلى أين يمكنني الذهاب؟ لم يعدْ لي مكان.

غريب أن تتبدل الحياة بالكامل بكل تفاصيلها الصغيرة والكبيرة في بضع ساعات. في تلك الليلة أدركتُ أن الطريقة التي غادرت بها قريتي، في ليلة عرسي تحديدًا، وبصحبة تلك المرأة، تجعل من عودتي إليها مرة أخرى أمرًا مستحيلًا. لقد ارتبط مصيري

بمصيرهما، وانقطعت كل الطرق الممكنة بيني وبين كل ما عرفته سابقًا في حياتي.

أذكر أنني هدأت فجأة. مسحتُ دموعي وساعدت آفرين في حمل الحقائب وترتيب أماكن نومنا في بيتنا الجديد. نحيت عقلي ومشاعري ومخاوفي جانبًا، وأجبرت نفسي على التناسي والبدء في التأقلم مع حياتي هنا. خوفي السابق من آفرين ظل موجودًا؛ لكنه كمن في ركنٍ مظلم من رأسي، وفي المقابل علمت نفسي سلوكا هادئا يضمن لي الأمان والستر. كان عليَّ البقاء على قيد الحياة؛ البقاء مستورة، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة بعيدًا عن شوارع البندر المجهولة، وبنادق أهلي المعمرة في القرية.

بدأت بعدها في التعرف عليها بشكل أعمق. عاملتني برفق كما كانت تفعل مع زوجها تمامًا، وظللت أنا صامتة كما كان هو. لم أجد تفسيرًا لصمته سوى السحر، وتأكدت من ذلك حينما رأيتها تجبره على تناول كثير من الحبوب بعد كل وجبة طعام، ثم تضع رأسه على صدرها، وتبدأ في القراءة بلغتها العجيبة.

عندما لاحظَتْ نظرات الشك التي أرمقها بها، أخبرتني أنه مريض، مرض لا يمكن أن أفهمَه وأنا في هذه السن الصغيرة، ولذلك فهو يحتاج للانتظام على العلاج والبعد عن الضغوط والتوترات. تتطلب حالته الكثير من العناية، ولكي تتمكن من فعل ذلك، عليها هي الأخرى أن تحصلَ على بعض الوقت الخاص لنفسها، لكي تشحذ طاقتها وتتمكن من مواصلة تأدية واجباتها

تجاهه. ولهذا كانت تتزين كل يوم في موعد نومه، وتعلق الكاميرا في رقبتها، وتغادر المنزل ممسكة بمحفظة صغيرة وكتاب.

ومع الوقت بدأت أتذكر تهمتها الأولى التي وُصِمت بها حينما حلت على القرية قبل أن تُنعت بالساحرة، ورددتها في عقلي كل يوم: «الفاجرة المغربية!»

أغدقت عليَّ بالهدايا، ملابس جديدة وحلي وألعاب. تملأ البيت بأجود أنواع الطعام، وتجدد الأثاث والديكور والأجهزة. لم يشُك الرجل في سلوكها، ولم يتساءل عن مصدر كل تلك الأموال، فهو شبه مغيّب معظم الوقت، وقد أدركت بعد فترة أن السحر أفسد عقله تمامًا، فلم يعد قادرًا على فهم الأمور كما أفعل أنا. وذات يوم تجاسرتُ على سؤالها عن تلك المبالغ الطائلة التي تبعثرها هنا وهناك، فأخبرتني بمنتهى الهدوء وبابتسامتها الماكرة المعتادة، أن حماها العمدة هو من يمدها بالأموال، وأنه وضع باسم ابنه وباسمها وديعةً ضخمة في أحد البنوك، ليعيشا من ريعها، ولتؤمِّن لهما مستقبلهما بعيدًا عن القرية التي لم يعدْ بإمكانهما العودة إليها.

قالت إن الرجل يُقدِّر لها جهدها في رعاية ابنه المريض، الذي حاول علاجَه لسنوات طويلة عند أفضل الأطباء دون جدوى. وعندما سألتها بريبة عن كيفية تقبله لاختطافها لي في ليلة عرسي، تلعثمتْ قليلًا، ثم أسقطت ابتسامتها وواصلت حديثها...

قالت إنها لم تخبره بشأني، وإن بعض أهل القرية اعتقدوا أنني هربت وحدي، والبعض الآخر يعتقد أنني سقطت في ترعة

العفاريت التي تنادي على العرائس المعقود لهن، وتبتلعهن دون أن تبقي لهن أثرًا.

بكيت حينها كثيرا، احتضنتني وقالت إن ما فعلناه هو الصواب، وإن الأطفال في سني لا ينبغي لهم الزواج، وإن لقاء الأزواج في ليلة عرسهم يجب أن يكونَ في غرفة مغلَقَة، ولا يصح أن يُدعَى الناس للفرجة عليهما وكأنهما حيوانات في قفصٍ بحديقة عامة.

أخبرتني أنها ستضمن لي حياةً مختلفة بالكامل عن كل هذا الخراء، ستعلمني القراءة والكتابة وتستأجر لي معلمين يدرسون لي في المنزل اللغات والعلوم والموسيقى والإتيكيت، ستجعلني أزور الكثير من الأماكن الجميلة، وأقوم بكثير من الأشياء المرحة والمفرحة.

لقد حرمتني الملعونة من أهلي وبيتي وعريسي وكل ما كنت أتمنى، من أجل هذا الكلام الفارغ. لعنة الله عليها؛ لعنة الله عليكِ يا آفرين!

كنت أتناسى كل هذا بالانغماس في أعمال المنزل. الشقة واسعة وتحتاج لجهد مكثّف، وهي استغلت حبي للشغل في البيت وتوقفت عن مساعدتي، ولم تكتفِ بذلك؛ بل أثقلت عليَّ بتصميمها على تعليمي القراءة والكتابة. كانت تُوبخني عندما أتباطأ في القيام بالواجبات التي تكلفني بها، وتجبرني على قراءة القصص. أمضيت عامًا كاملًا في منتهى المشقَّة، فقط لإرضاء هوسها بالدراسة، وبالفعل أحضرت اثنين من المعلمين إلى المنزل؛ أحدهما لتعليمي

الموسيقى والعزف على البيانو، وأخرى لتعليمي الإتيكيت، وهي واظبت معي على دروس القراءة بالعربية، ثم بدأت في دروس اللغة الفرنسية، وللأمانة عرفت حينها أن الرطن الذي كانت ترطنه والذي كنت أحسبه تعاويذ سفلية، كان كلامًا عاديًّا بتلك اللغة السخيفة التي يتحدثونها في بلادهم.

أمضيت في هذا الهمِّ ثلاثة أعوام، غيرت كثيرًا في شكلي وأسلوب كلامي والطريقة التي أمضي بها وقتي، صرتُ لعبتَها التي تعبث بها وتشكلها كما تشاء، تحاول أن تشغل جل وقت فراغي بقراءة القصص السخيفة، وخصوصًا ذلك الكتاب الذي لم تمل أبدًا من معاودة قراءته عشرات بل مئات المرات، قصة حي بن يقظان لابن طفيل.

لم أرها يوما تقرأ القرآن وتتحدث عنه كما تتحدث عن كتاب ابن طفيل، كان مثلها الأعلى في التعرف على العالم وعلى الله، قالت إنها عرفت الله من حي، وإن أباها هو من أورثها ذلك الحب العظيم له، حتى أنه سماها آفرين بسبب حكاية الولد الذي ربته الظبية منذ مولده، ثم صارت بوابته للمعرفة العليا التي بدأت بتعرفه على الروح، الكيان الغامض الذي شقَّ بطنها بحثًا عنه عندما ماتت، وتعرف عليه وأدرك عظمته، فقط عندما لم يتمكن من العثور عليه في أحشائها.

ولهذا سماها أبوها تيمُّنًا بقصتهما المقدَّسة، فآفرين تعني الغزال الصغير بلغتهم الأمازيغية. لطالما سمعتها وهي تهذي بتلك

الأساطير دون أن أنبس، وصدق ظني حينما كبرت؛ وعرفت من شيخ المسجد أن ابن طفيل هذا من أشهر ملاحدة الدولة الإسلامية في الأندلس. ربما كان يتحدث عن الله فقط ليبثَّ سمَّه في عقول المجانين أمثال آفرين.. وعمر.

لقد كانا يبحثان عن الله في قصة مليئة بالتخاريف؛ كتبها رجل كافر، ولم يخطر لهما أن الله موجود في المساجد وفي صفحات كتابه الكريم. لا سامحك الله يا آفرين! كانت لعنة تفسد كل ما يمسها.

مرت السنوات الثلاث وأنا متيقنة تمامًا من أن ما حدث لي بدايةً من ليلة عرسي هو أسوأ ما يمكن أن يحدث، إنها مصيبتي الكبرى التي سأقضي عمري في محاولة التعافي منها، ولم يخطر لي قط أبدًا أن كارثةً أكبر توشك على الحدوث.

لقد حملت بنت الأصول في أحشائها طفلًا ما. أخبرتنا أنا وابن الباشا وهي تبكي من الفرح وتتقافز كالأطفال؛ لكن الخبر السعيد لم يقدِرْ على تغيير جهامة وجه الرجل، وأنا؛ كدت أتقيأ من القرف. كنت في الثانية عشرة حينها، امرأة كاملة النضج من المفترض أن أكون سيدة منزل وأُمًّا لطفل أو اثنين. ربما ظنَّت أني لا أفهم ما تفعل؛ لكني كنت أعرف كل شيء وأسكت، لقد أجادت إخفاء نجاستها؛ لكن على من؟!

بعد الشهور التسعة التي قضتها كغيرها في القراءة والكتابة والتصوير وإمضاء الساعات الطويلة في الشوارع، جاء الطفل.

اصطحبتني معها إلى المستشفى، وكنت أول من حملته بعد أن خرج من غرفة الولادة. انتابني وقتها أغرب إحساس يمكن أن تحسَّه امرأة، لقد كرهته بكل ما أوتيت من غضب وأخلاق ودين. كرهته لأنه ابن آفرين، ولتأكدي من أنه (ابن حرام)، وفي الوقت ذاته -تحديدًا عندما دققت في تفاصيله الصغيرة، أصابعه وأنفه وعينيه نصف المغمضتين- شعرت بعطف ومحبة لم أميِّزْ مصدرهما في بادئ الأمر؛ لكني فهمت بعد فترة. إنها غريزة الأمومة التي كانت في كامل تهيؤها واستعدادها منذ أربع سنوات، دون أن تجد طفلًا ترعاه، وها هو الطفل الحبيب قد جاء من الشيطانة الكريهة، هل أكرهه أم أحبه؟ وهل يمكن أن يكون هذا قرارًا؟ كيف يمكن أن تتحكم المرأة في شعورها بتلك السهولة؟ لكني لم أستطع.

أقسم أنني حاولت ولم أستطع، لقد أحببته وكرهته بشدة كادت تصيبني بالجنون، وخصوصًا بعد الكارثة التي حلت علينا بسبب الملعونة.

بعد أسبوعين من الولادة، قررَتْ بمنتهى الثقة زيارة القرية مع زوجها وابنها. قالت إنه حق عائلته عليه، وحقه على عائلته أن يحدث هذا اللقاء، وإنهم بالتأكيد سينسون كل الضغائن القديمة بمجرد أن يتعرفوا على صغيرهم. أذكر أني وقفت حينها في ركن الغرفة أراقبها وهي تهذي بهذا الحديث، ولأول مرة أرى حمقَها أكثر خطرًا من شرها. عرفت جيدًا ما ينتظرها هناك، وأدركت أنها ما زالت جاهلة بدواخل قريتنا وأهلها وطريقة تفكيرهم.

حدَّقتُ في المسكين الصغير وهي تجهزه للزيارة الشؤم. أوشكت على البكاء والانقضاض عليهما وانتزاعه منها. أردت تقبيلَ وجنتيه الحمراوين لمرةٍ قد تكون الأخيرة؛ لكنني ولسبب ما، ابتلعت دموعي ورسمت على وجهي ابتسامة اعتادت هي تصديقها. تقدَّمت تجاهها وشددت على كفها وأخبرتها أنها بنت أصول، وإن ما تفعله هو الصواب للجميع. تعمَّدت ألا أعاود النظر لعمر في تلك اللحظة، ثم غادرت الغرفة وتوجَّهت للحمام لأستكمل غسيل الملابس... ولم أرها بعدها قط!

***

ثلاثة أيام مروا عليَّ وأنا وحيدة تمامًا في الشقة. أغلقت الباب بالأقفال من الداخل، ونزعت سلك التليفون. لا أذكر أني قضيت مثل هذا الوقت وحدي من قبل؛ لأول مرة أشعر بالحرية. فتحت بوابة دولاب آفرين على مصراعيها وارتديت أحد فساتينها القصيرة، استعملت أدوات الزينة خاصتها، ولونت وجهي بالمكياج، ثم خرجت للشرفة ورحت أراقب جارنا في البناية المقابلة، وهو يجلس كعادته أمام أكوام الكتب والأوراق والأقلام. كان طالبًا في كلية الطب، وسيمًا ويلعب الحديد، ماذا يمكن أن تتمنى فتاة في سني أكثر؟ وقفت أتأمله قرابة الساعة؛ لكنه لم ينتبه، وعندما فعل، توجه للنافذة بعدم اكتراث وصفعها لتنغلق. لم يتبع نظرته الأولى لي بنظرة تالية. ارتجف قلبي حينها وأوشكت على البكاء، إلى أن لاحظت بواب البناية المقابلة الواقف في الأسفل يحدق بي

بإعجاب شرِه. شعرت بقرف شديد. كدت أتقيأ وأنا أتأمل وجهه القبيح وكرشه المنتفخ وقدميه المتسختين... لكنني لم أتقيأ؛ بل ابتسمت، ولم أبرح الشرفة إلا بعد ساعة أخرى!

استغرقت في حزنٍ عميق لما تبقى من الوقت، لا أعرف كيف تمكنت من تناسي رحلة آفرين للقرية. أمضيت ساعات طويلة في مشاهدة التلفاز وتناول الطعام والرقص، والوقوف في الشرفة كل مرة بفستان جديد وابتسامات جديدة تخفي تحتها الشعور ذاته بالغثيان.

وفي صباح أسود، أفزعني خبط عنيف على باب الشقة. كان ابن الباشا الذي لم أسمع له حسًّا من قبل، يبكي ويصيح باسمي لأفتح. أسرعت بفتح الأقفال فوجدته يدفعُ الباب ويركض للداخل، ومن كفه تتدلى لفّة صغيرة، يمسكها وكأنّها كيس فاكهة، رماها على أحد المقاعد وشرع في غلق النوافذ الواحدة بعد الأخرى، ثم الستائر ثم مصابيح الإنارة. كان جسده يرتجف وهو يتنقل من غرفة إلى أخرى ليتأكد من أن كل البوابات بينه وبين العالم الخارجي قد أُقفِلَت بإحكام، وأنا أتبعه مذعورة، أحاول فكَّ طلاسم بكائه وتمتماته الغريبة لأفهم أي شيء. أسأله فلا يبدو عليه أنه يسمعني أو يراني من الأساس؛ لكنني وبالرغم من انهياره التام، وبكائه الهستيري، تمكنت من فهم بعض ما حدث.

لقد حبس الأهالي آفرين في بيت الضيوف الملحَق بقصر الباشا العمدة، وأحرقوه وهي بداخله... وهو حاول إنقاذها؛ لكنهم لم

يسمحوا له بالوصول إليها إلا بعد أن فارقت الحياة. لم أعرف قبل هذا اليوم أنه يحبها بتلك الدرجة، كان يهذي باسمها وهو ينوح ويلطم وجهه، ويقول كلامًا كالذي أسمعه في الأغاني. لم تكن تستحق كل هذا الحب؛ لكنها أيضًا لم تستحق تلك الميتة. قلت هذا بصوت مسموع لم يسمعه هو، وحاولت بعدها أن أستدعي دمعة واحدة تناسب الموقف؛ فلم أستطع، ثم ألحت عليَّ هذه الفكرة الحزينة الثقيلة التي لم تبرحْ عقلي بعدها قط.

إن بيت الضيوف في حديقة قصر العمدة، هو نفسه بيت الزوجية الذي كان يُفترَض أن أعيش فيه منذ أربعة أعوام. لقد دمرت آفرين حياتي وهي حية، ثم أحرقت بيتي حتى وهي تموت.

لم أشعر وقتها بأني في حاجة لسماع المزيد. تركته يواصل الانهيار وحدَه، وتتبعت غريزتي اللعينة التي قادتني للفة الملقاة على المقعد في الخارج، وعلى الرغم من أنها لم تتحرك، ولم يصدر عنها أي صوت مسموع، عرفت أنه عمر.

كان غارقًا في البراز، جسده مرتخٍ تمامًا وفمه مفتوح. لم أر رضيعًا بتلك الحال من قبل حتى أني شككت في أنه ميت. داعبت شفتيه، فتحركتا وبدأ في محاولة مص إصبعي. لم أجد وقتها أمامي سوى كوب من العصير متروك على الطاولة منذ يومين. تناولته دون تفكير ورحت أغمس أصابعي فيه وأبلل جوفه، وعندما وجدته يمصها بنهم، صببت من العصير جرعات صغيرة في فمه إلى أن أفاق.

أخيرا فتح عينيه، وفي تلك اللحظة بالذات، تعلَّقت نظراتنا، ومصائرنا لأجلٍ غير معلوم.

***

في البداية، ظننت أن ردة فعل الرجل بعد الحادث ستدوم يومًا أو اثنين؛ لكن النوافذَ ظلت مغلَقةً والباب كذلك، حتى الشرفة التي أضحت مكاني الخاص ومكمنَ أسراري الصغيرة أقفلها. كدت أجنُّ من هذا الظلام والصمت الذي لا يخالطه سوى صوت البكاء. وأكوام الطعام التي ملأت الثلاجة والمطبخ سابقا أوشكت على النفاد. هل أكسر الباب وأهرب؟ فكرت في الأمر كثيرًا؛ لكني أدركت أن هذا البيت هو مأواي الوحيد، وأن هذا الصغير وذاك المجنون هما أهلي، وما يملكونه من مال هو كل ما أملك، حتى أني لا أحمل أوراقًا ثبوتية تمكنني من التحرك أو العمل... أو الزواج.

ماذا يمكنني أن أفعل؟

أظن أني لعنت آفرين في تلك الأيام بعدد أنفاسي، ورغم هذا واصلت القيام بواجباتي تجاه عمر والمنزل على أفضل ما يكون. أما (البيه)، فحالته استمرت في التدهور، وخصوصًا بعد أن نفدت الحبوب التي عوَّدته آفرين على تعاطيها.

أصابنا الجوع بالهزال، ووضعنا الظلام والعزلة على حافة الجنون. كنت على وشك قتل نفسي أو قتل أيٍّ منهما، إلى أن طرق بابنا أخيرًا شخص ما. ركضت تجاه الباب؛ فسبقني ودفعني بعنف لأبتعد عنه. لم يسأل من الطارق، اقترب فقط بحذر، منتظرًا أن

يُعرِّف هذا المجهول عن نفسه، وعندما جاءه الصوت من الخارج باسم بدا أنه كان ينتظره، فتح الأقفال بسرعة. لم يمدَّ يده ليسلم على الغريب، شدَّه من دون مقدمات وقاده نحو غرفة المكتب وأغلقها على كليهما، بعد أن أحكم غلق باب الشقة من جديد.

أكثر من ساعة مرت وأنا منزوية في ركن مظلم، برأس تدور فيه ألف فكرة متضاربة ومخيفة. يتناهى إلى سمعي صياح (البيه) وبكاؤه، وصراخ عمر في الغرفة المجاورة. أتجاهل كليهما وأحاول تخمين سببٍ منطقيٍّ لتلك الزيارة، وطريقةً ممكنة أستغل بها وجود الزائر للخلاص من هذا الكابوس. فكرت في اقتحام المكتب وطلب المساعدة، أخبره أن (البيه) جُنَّ، وأنني والرضيع سنموت جوعًا إن لم يساعدنا أحد، وقبل أن تختمرَ الفكرة في رأسي، فتح الغريب باب المكتب وناداني لأنضمَّ إليهما.

وهنا؛ تغير كل شيء...

عرفتُ حينها أن هذا الشاب اسمه جميل، وهو محامٍ يعيش في القاهرة، وابن محامي العمدة في ميدوم. كان والدُهُ اليدَ اليمنى للباشا لأعوام طويلة، وتذكرت حينها أني لطالما رأيت أباه في البيت الكبير منذ طفولتي، أما هذا الشاب فلم أره من قبل. أخبرني حينها أنه سمعَ عني من أهل البلد، وأن سرِّي سيبقى محفوظًا معه، ولا داعي للخوف أبدًا. سوفَ يساعدني إن وعدته أنا الأخرى بمساعدته، وكانت تلك المساعدة هي التزامي التام بالعناية بـ(البيه) وابنه، وتولي أمورهما بالكامل كما يقرّر هو.

قال إن (البيه) يمر بأزمة نفسية منذ أعوام طويلة؛ لكن حادث قتل زوجته الرهيب قصم ظهره وشوَّشه تمامًا، ورغم ذلك سنظل في خدمته بالشكل الذي يرضيه ويريحه، وهو مُصمِّمٌ في تلك الفترة على إبقاء المنزل مغلَقًا عليه هو وابنه للحفاظ على سلامتهما، وإنه سيسمح لي بالخروج لشراء الطعام والشراب والأدوية وكل مستلزمات المنزل، بشرط أن أعود بسرعة ولا أثرثر مع أحد عن أيٍّ من أسرار البيت. هو يريد أن يبقى بعيدًا عن الأنظار لفترة، حتى يستعيد شعورَه بالأمان، ويقدر على مواجهة العالم والناس من جديد، وسوف يتولى هو أمورَه المالية، ويمدني بكل ما يلزمنا من مصاريف شهريًّا.

لم أملك حينها رفاهية الاختيار، فلم تكن هناك بدائل لإرادة (البيه) المجنون والمحامي الذي صار فجأة مسؤولًا عن ماسورة أموالٍ مفتوحة لا صاحب لها.

نفَّذت كل ما أمرت به؛ لكن الفترة القصيرة التي ظننتها أسبوعًا أو شهرًا، صارت عامًا واثنين وثلاثة. مرت السنون تباعًا دون أن يتحسن (البيه)، وبعد أن كان منزويًا وصامتًا على الدوام، صار عنيدًا عنيفًا، يزداد جنونه يومًا عن الآخر. لم يسمحْ للمسكين عمر بتجاوز عتبة الشقة، ولا حتى رؤية ما يوجد أمامها في اللحظات التي أخرج وأدخل فيها. كسر التلفاز والهاتف، ومزق كل الكتب والمجلات والجرائد القديمة، وظلت النوافذ مغلَقةً بالأقفال والمسامير. لم يسمح لعمر بالذهاب لتلقي تطعيماته، وعندما كان يمرض، كنت

أشتري له الدواء بناءً على وصفات الصيادلة دون الرجوع لطبيب. لا أدري كيف صمد المسكين كلَّ تلك السنوات؛ لكنه فعلها بقدرة القادر وحدَه، إلا أن جسده لم يسلَم من ذلك التهاون في الاهتمام بصحته. أصيب بشلل الأطفال، وصار جسمه جلدًا على عظم كالعجائز، ورغم ذلك، لم يكنْ هذا ما أثار خوفي عليه؛ بل ما حلَّ بعقله عندما أتم عامه الخامس.

حتى هذا الحين لم يبدُ اختلافا واضحا عن بقية الأطفال. لم يكن قد بدأ في استيعاب الحكايات المرعبة التي يهذي بها أبوه دون انقطاع، عن العالم المتوحش، وعن أمه القتيلة المحروقة، وقتلتها المتربصين بهما خارج الجدران؛ بل وعن وحوش مخيفة بأجساد حمام رمادي، تراقبهم من شقوق النوافذ!

ما زلت أذكر اليوم الذي اشتريت له فيه لعبة دب محشو بالقطن. طار فرحًا به، واتخذه صديقًا ورفيقا في النوم والطعام واللعب، ولأنني كنت دائمًا أناديه بعزيزي عمر، صار يتحدث إلى الدب بعد فترة ويدعوه عزيزي، وبعد فترة بدأ في مناداته : (عزيز).

كان يجلس قبالته ويواصل التكلم لساعات طويلة، حتى أني تعجبت من أين له بكلِّ هذا الكلام وهو لا يختبر من الحياة شيئًا يُذكَر؟

وعندما استرقت السمع، وجدته يتحدث إلى عزيز، وبعدها يتحدث بصوت عزيز إلى عمر. والغريب أن الصوتين مختلفان، ما أثار فزعي، وجعلني أتجنَّب حتى الاقتراب منه؛ أو منهما!

وبعد عدة شهور بدأ سلوكه في التبدل؛ لم يعدْ لطيفًا كما كان في السابق. صار متذمِّرًا عبوسًا قليل الحركة. يجلس تحت قدمي (البيه) وكأنه كلبه الأليف، ويستمع بجهامة لحكاياته الملعونة، والدب اللعبة لم يعد رفيقه، حتى أني كنت أسمعه وهو يصيح باسمه ويسبه بالشتائم ذاتها التي سمعها من أبيه.

وجدته ذات مرة جالسًا في ركن المطبخ، ممسكًا بسكين كبير، وأمامه الدب ممزقًا تمامًا، تتناثر أجزاؤه حوله. لن أنسى أبدًا تلك النظرة في عينيه. كانت مفزوعةً ومفزِعة، تغشاها دموع لزجة لم تغادر مقلتيه.

عندما اقتربت منه مرغمة، قال بصوت مرتعش:

«لقد قتلت عزيز! انظري!»

نظرت إلى القطن بين يديه فوجدته معجونًا بالدماء. اختلطت عليَّ الأمور للحظة، وارتجفت أفكاري مع ارتجافة قلبي. صاح صوت ما في عقلي.

«الدببة القطنية لا دماء لها.. كيف يمكن لعزيز أن يموت؟!»

ابتعدت بسرعة وكدت أركض هاربة من هذا الكابوس دون رجعة، إلى أن وقع نظري على فخذ عمر، وأبصرت به جرحًا غائرًا تنز منه الدماء.

(3) عزيز

ما الذاكرة؟

راودني السؤال وأنا أخطو خطواتي الأولى خارج البيت، عندما انهالت على عقلي الذكريات والصور، تلك التي لم تحدث لي قط؛ لكني أراها محفورةً على جدران وعيي بعمق وإتقان. والجدران آخذة في التمدّد، والنقوش تتكاثر وتتضاعف أمام عيوني الداخلية، ثم أمام عينيَّ الناظرتين إلى العالم.

أرى كلَّ التفاصيل واضحة بغير لبس، وإن كانت تفصل بيننا غمامة ما، مصنوعة من زمن أو من استحالة. أراهم جميعًا كما يرى المرء ذكرياته. التذكر نوعٌ فائق من الرؤية، يحققه عضو مختلف غير العين، بحاسة أخرى غير البصر؛ لكنها تضاهيه في المصداقية والأثر.

أرى أماكن شاسعة، حدائق مزدحمة، وبنايات شاهقة ومساجد عتيقة. أرى طرقًا ممتدة تربط بين قرى لا أعرفها، تحفها أشجار وأبراج معدنية، تنبثق من قممها أسلاك طويلة لا نهاية لها. قضبان قطارات على جانبيها أشجار مشابهة لتلك التي تحتضن الطرقات، تمر تحت بعضها مجارٍ مائية ضيقة. كل تلك التفاصيل تتشارك في صفة واحدة: الامتداد إلى آخر مرمى البصر. كلّها رغم ثباتها تبدو أمامي وكأنها تركض إلى حافة الأرض. تلمس الأفق بأطراف

أصابعها ثم تلتفت للوراء وترمقني بنظرة محرّضة، تطعن المشهد في صدره فيتمزق، لتكمل هي طريقها إلى الماوراء.

أبصر العالم من موضع قدمي خارجه، ثم أقتحمه ويقتحمني في اللحظة ذاتها، أصير بعضه ويصير بعضي، نمتزج؛ نتزاوج، ثم ننجبني في خلق آخر وطور جديد.

ها أنا أراها، صاحبة الألف اسم، وألف بيت... آفرين أو ريم، أو مريم أو ليلى، أو لبنى أو عروس الشاطئ... أو المعجزة التي أهداها البحر لأهل الإسكندرية صباح عيد الفطر، أو أمي.

نعمات كانت تدعوها آفرين، هذا ما كانت تعرفه عنها، ببساطة لأنها لم تقرأ دفاترها العجيبة. وعلى الأرجح أنها لم تكن ستفهم منها شيئًا إن قرأتها. أنا كذلك لم أفهمْ في البداية، ولا بعد عام، ولا اثنين. لقد استغرقت دهرًا حتى استطعت لملمة شتات تلك الجمل والمقاطع والصفحات غير المترابطة. لم تكن يوميات؛ بل خواطر وملاحظات وسطورًا غير مكتملة. ذكريات كثيرة حد الاستحالة. كيف يمكن لإنسان واحد أن يعيش كل تلك الحيوات؟

كيف يمكن أن يمتلكَ كل تلك الذكريات وبأكثر من لغة؟

لكنني تغاضيت عن كل الاستحالات في سبيل التعرف إلى آفرين، أو كما كانت تدعو نفسَها، ابنة العالم وأمه..

أسرتني الحكاية الأولى، عندما كانت هناك بعد شروق الشمس، رضيعة بعمر ساعتين أو ثلاث على الأكثر. تستلقي عاريةً على رمال الشاطئ وسط أكوام من السَّمك الطازج، الذي لم يزَلْ أكثره يتلوى

ويتقافز حولها وفوقها. لاحظها الصيادون، لفت أنظارهم السمك الملقى هناك دون صاحب، وقبل الموعد المعتاد لبدء الصيد، وعندما اقتربوا يتفقدونه محت تساؤلاتهم دهشة ثانية. دهشة بحجم كف اليد، فتاة لم تزل مخضبةً بمخاط الولادة، يتشبث كفها الصغير بسمكة حية، وتضعها بين شفتيها، وكأنها ثدي أم، والسمكة مستسلمة لها تمامًا، تتلوى بلطف دون أن تحاول التملص منها؛ وكأنها تداعبها، وبالفعل، تفتر شفتا الصغيرة عن ابتسامة فرحة لا تتناسب مع عمرها وعريها وجوعها، والخوف الذي يفترض أن يثيره فيها كل هذا... عندما انسلتت السمكة من يدها استقرت على بطنها وكفت عن الحركة، وقفزت أخرى وأخرى ليكملوا مداعبة كفيها الراغبتين في التشبث بشيء ما، والمرحبتين بكل شيء راغب فيهما. رغم غضاضة بشرتها، وحداثة قدرتها على فتح جفنيها ومتابعة الصور والتحديق فيها، كانت تفتح وتتابع وتحدق، وعلى الرغم من استحالة نظر المواليد إلى النور مباشرة، كانت عيناها مفتوحتين تحت الشمس، تنظر لها دون رفة جفن.

مرت دقائق كثيرة بطيئة ومتخمة بأسئلة غير منطوقة، ثم بدأت الدهشة تصوغ نفسها في كلمات وأسئلة ودعوات وافتراضات، وتأصيل لما يشبه الأسطورة. بدأ الحديث من نقطة اتهام الصغيرة بأنها (بنت حرام)؛ تخلص منها أهلها بالقرب من البحر أملًا في موتها غرقًا، مرورًا بأنها فتاة مسكينة وضعيفة ينبغي على الصالحين فيهم تولي أمرها والاعتناء بها خير عناية؛ لأن هذا ما يفعله أولاد

الأصول وأهل الخير، ثم انتهى فيض الحديث إلى نقطة لا يجوز العودة منها أو التجديف فيها. صارت الفتاة بإجماع الحاضرين: هبةً مباركة من الله!

اليوم عيد والبحر بركة وولادة البنات رزق، وتربية اليتيم قربان للرب، وأهم من كل هذا أن الإيمان بالمعجزات واجب وفرض عين.

ومنذ ذاك اليوم، وعلى هذا الشاطئ، تحديدًا من ذلك الجسد اللطيف المتناهي الصغر، تفجرت حكايات لا نهاية لها، ومنها ما لا بداية له. عاشت آفرين في عشرات البيوت، صارت ابنة لعشرات الآباء، تبرك الناس بوجودها في منازلهم لأسبوع أو شهر أو بعض عام، إلى أن تتلقفها أيادٍ أخرى في بلدة جديدة بأهل جدد. حتى أنا الآن، وبعد عشرات الأعوام من موتها، أحاول تلقفها ودعوتها للبقاء في البيت أكثر؛ لكنها تأبى.

أنسحب من ذاكرتي وأعود لأبصر الطريق من جديد، وبعد طول مسير أجدني واقفًا تمامًا أمام بابنا، أجل هو الباب ذاته الذي فصلني وعمر وأبي عن العالم لثلاثين عامًا متواصلة؛ لكنني وللمرة الأولى أبصره من الخارج، وأبصر عبره!

لم يقدرْ عمر على بناء اللحد الذي ارتضاه لأبي.. لنا...

لم يطاوعه جسده المريض على ذلك، فاكتفى برص هشيم كل ما استطاع تكسيره على الأرض. صنع منه شكلًا بيضاويًّا كبيرًا، بداخله تستلقي جثة أبي، وبجواره يتكور عمر على نفسه في وضعية الجنين، ومن بين بطنيهما تمتد العصا!

(4) آفرين

لم أتمكن قطُّ من إحصاء عدد بيوتي وآبائي... عندما تخطى عددهم المئة توقفت عن المحاولة.

أتعرف تلك المساحة المعتمة من الذاكرة المبكرة للأطفال، تلك التي لا يمكننا الولوج إليها أبدًا؛ حيث كنا نسبح في بطون أمهاتنا، ونلتصق بصدورهن ونتعلم الحبو تحت سيقان الكبار. في تلك المساحة تسكن بيوتي وآبائي؛ غير أن تلك ليست منطقتي المعتمة الوحيدة؛ بل يوجد مثلها الكثير في مواضع مختلفة وغير اعتيادية في سجلات عقلي.

فجوات في الزمن، تفصل نقطةً واضحة عن نقطة واضحة، وبينهما ضباب مكوَّن من عددٍ لا نهائي من الاحتمالات.

المناطق المعتمة في ذاكرتي محاطةٌ بجدران عملاقة وحصينة؛ لكنها مليئة بشقوق كثيرة وشديدة الضيق، شقوق لا تتسع لتمرير الذكريات؛ لكنَّها تتسع لتسريب أرواحها. تبقى هي مغمورة بالنسيان خلف الجدار، بينما ينسل منها ومنه أثر ما، رائحة، ملمس، حلم، شعور، صوت..

يجتاحني حينها شعور طاغٍ بالألفة، دون أي سبب واضح، فالسبب هناك خلف الجدران، ولم يصبني منه سوى أثره. أنا مصابة بمرض الألفة يا جلال!

وهناك، من شق رفيع مراوغ، انسل صوتك إلى أذني، وأُصِبت بك!

في اليوم الأول، وهو ما لن تتذكره أبدًا؛ لأنه كان يومي الأول معك؛ لا يومك الأول معي، كنت مارة مصادفة في رواق الجامعة، في مهمة سريعة لالتقاط بعض الصور للعميد الجديد.

لطالما كان يحلو لي بُعَيد القيام بجلسة تصوير، أن ألعب مع عقلي وحواسي لعبة قص ولصق، أتخيل العالم المشغل حولي ينطفئ، تسكن الأصوات والأشكال وتتحلل المشاهد لعناصرها الأولية، يتحول كلُّ شيء إلى مادة خام مثالية تنتظرني لأصنع منها لوحة (كولاج)؛ يمكنني حينها اقتطاع عدد من الصور لبناء حكاية، أو عدد من الأشكال لتكوين صورة، أو عدد من الألوان والخطوط لرسم شكل؛ يمكنني فصل الشخوص عن خلفياتها ولصقها على خلفيات أكثر ملاءمة وجنونًا، يمكنني خلق نظرة غائرة أو عناق رفيق أو قبلة، وعلى التوازي؛ تنسحب الضوضاء من مسام الموجودات، وتكشف لي الموسيقى عن وجهها الخفي، ثم تدعوني للرقص.

في إحدى تلك اللحظات سمعتك من وراء باب قاعة المحاضرات. لم أرك ولم أحاول، فقط أصخت السمع ، واستعرت منك صوتك للحظات ليشاركني لعبتي. لقد ألفته فجأة وبقوة، وكأنك أنت من كان يقص عليَّ حكايات قبل النوم الرهيفة في مهدي، أو قبل ذلك..

صوتك يشبه (التشيللو).. قوي، حنون، وطاغي الحضور..

في البدء تلصَّصت عليك فقط للإنصات لنبراته وموسيقاه المدهشة، ثم أثار حديثك فضولي. كنت غاضبًا؛ غَاضبًا جدًّا. لم أفهم في السياسة طوال حياتي، ولم أهتم من الأصل؛ لكنني فهمت أنك من نوع الفرائس المحبَّبة لمُخبِري البوليس السياسي في الجامعة. في تلك اللحظة تخيلت صورتك بين شرطيين يجرانك غصبًا في الرواق ذاته؛ وهو ما حدث بالفعل بعد بضعة شهور، وفي المبنى نفسه؛ حيث كنا واقفين كلٌّ في عالمه.

حفظت كيفية نطقك للكلمات، مخارج ألفاظك، وقفاتك، كيف تبتسم وتكشر وتتهكم، كيف تعلو نبراتك وتنخفض وتصيح، وفي المساء قرأت بصوتك كتابي المفضَّل؛ ثم نمت كقطة شبعانة على فخذ صاحبها.

عرفت بعدها أنك تدرس في الجامعة منذ ما يقارب العشر سنوات، متنقلًا بين كليات الحقوق والتجارة والآداب، ومتطفِّلًا على كليتَي: الإعلام، والسياسة والاقتصاد... عرفت عنك الكثير بعدها؛ ربما حتى تلك الأشياء التي لم تكن قد عرفتها عن نفسك بعد. كان من المفترض أن تنتهي لعبتي هنا، لقد أشبعت فضولي وأمتعت مخيلتي وانتهى الأمر، وأرضك التي عبرت منها ذات صدفة وأغوتني باستكشافها لم يتبق فيها كثير من المفاجآت، والعبور ينبغي أن يظلَّ عبورًا، لا يجوز له أن يتحول إلى زيارة؛ أو إقامة!

لا لن أقيم بك، سألملم حماقاتي وأمضي دون أثرٍ أو ظل أو صدى؛ لكني لم أستطع، شيء ما فيك محرِّضٌ على البقاء، مثبط

لكل محاولات التغاضي والتناسي والهروب. كان الأمر مخيفًا ومضحكًا... كيف تحول العبور إلى محاولات فاشلة للهروب، والانسلال إلى اجتثاث؟!

حسنًا؛ سأسقط الحجابَ بيننا وأعرفك عن نفسي؛ لكن هل الأمر بتلك البساطة؟

ستسألني: «من أنتِ؟»

وسأقف كالبلهاء أمامك أفكِّرُ في إجابةٍ مناسبة. ستحتشد في عقلي عشرات الأسماء والجنسيات والوظائف، ما كنته وما أكونه وما أبتغيه، مئات الكذبات التي تلوتُها على مسامع أصدقائي ومعارفي، الحواديت الخرافية التي رسختها في عقول البعض عني وعن أصولي وبيوتي وآبائي. سيتكتل كلُّ هذا في فمي فأعجز عن النطق. أظنها ستكون المرةَ الأولى التي سأتمنى فيها أن أقول الحقيقة مجردة وعارية؛ لكنها أمنية -على بساطتها- ضاربة لحياتي بأكملها، للغتي، لذاكرتي.

سأدرك أنني عاجزة أمام أكثر الأسئلة بساطة وأولية. من أنا؟ لا أعرف! هل ستصدق لو أخبرتك بهذا؟ هل ستساعدني في العثور على إجابة؟ هل أريد حقًّا أن أعرف؟ وهل تريد أنت؟!

لطالما دأبت على أن أمسكَ ذكرياتي في يدي، أهشمها ثم أصنع من هشيمها لوحة موزاييك عملاقة هي أنا، أنَا التي اخترتها؛ لكن يبدو أن الأمر خرج عن سيطرتي، في هذه اللحظة التي تمنيت فيها أن أظهرَ لوحتي كبطاقة هوية، لم أجدْها، لم أجدْ سوى هشيم لا

معنى له ولا قيمة؛ لكنه هشيم يتوق إليك، ألا يمكننا تجاوز «من أنتِ» إلى «من أنتَ»؟ أعلم أنك ستخبرني لو عرفت مقدار شغفي بسماعك. ربما هذا هو كل ما أريد، فقط أن نتحدث، إلى أن نتعب من الكلام فنستريح.

حدقتُ في المرآة وجربت كل أسمائي تباعًا. أرتدي كل اسم، أحملق في نفسي به، أدور أقفز أرقص أتحدث أضحك أبكي، أحكي وأحكي وأحْكي، ثم أتجرَّد منه وأقيس آخر. كل أسمائي ليست على قياسي، أنا أكبر منهم جميعًا؛ لكنك لن تستطيع أن تحب امرأةً بلا اسم.

عرَّفتك على آفرين خاصتي التي أحبها، والتي أحببتَها بدورك. الفتاة التي ولدها بحر الإسكندرية، ثم تخطفتها البيوت، إلى أن آل بها الطريق إلى المغرب، في كنف رجل أمازيغي لا يطيل البقاء في بيتٍ واحد أكثر من شهر. يتنقل من طنجة إلى وادي الذهب، ليقدِّمَ عرضًا مسرحيًّا ألَّفه تيمُّنًا بقصة حي بن يقظان.

عرفه الجميع بحي، كما كان يسمي نفسَه. أظن أنه الاسم الوحيد الذي تمكن من ارتدائه والعيش به كما أراد. كل الأسماء الأخرى شديدة الضيق، وحي بقياس الأرض والسماء وما وراءها. وأنا سماني آفرين، الظبية الصغيرة بلغته الأمازيغية، ونسب إليَّ في مسرحيته دور الظبية التي تبنَّت حي.

كان مهووسًا بقصة الرضيع الذي نبت نبتًا على جزيرة الوَاق الواق، والتي لم يطأها أي إنسان قط، حتى عثرت عليه ظبية.

أرضعته وآوته وصارت له أمًّا وملاذًا. كبر في كنفها وراح يستكشف عالمَه بعقلٍ بكر وروح طلقة وفضول مشتعل. وبعد أن كان طفلًا ضعيفًا، لا يملك من العالم شيئًا؛ حتى اللباس واللغة، صار شابًّا قويًّا متتلمذًا على يد الطبيعة، عرف معنى الموت والحياة والجسد والروح، إلى أن قاده طريق المعرفة الحرة إلى الله ذاته.

أخبرني أن حي بن يقظان ليس مجرَّد حكاية، وأننا لسنا مجرد ممثلين. نحن موكلون ببعث روحه؛ باستحضاره، وهو ما لن يحدث وسط صخب المدينة. الأرواح القديمة تُستحضَر في الغابات والصحاري. سنمشي على الرمال حفاة، لتتصالح أجسادنا مع الأرض وما تحتها، وننام في الخلاء دون سقف، لتتصالح أرواحنا مع السَّماء وما فوقها.

نحن من لا بيت لنا نملكُ من الأرض والسماء أكثر مما يملكون، هم يقيسون أرضهم بالأمتار، ونحن نقيس أراضينا بالحكايات، وفي الحكايات يسكن العالم كلُّه وأكثر. «أنت يا آفرين، ابنة العالم وأمه!»

أتذكر عندما ألححت عليك لتقرأ عليَّ الكتاب بصوتك؛ أخبرتني بعدها أنها قصيدة طويلة في مديح فضيلة اعتزال العالم، فرددت قولك بأنها قصيدة طويلة في مديح فضيلة استكشاف العالم؛ ولم نتَّفِق بصدد هذا الأمر قط.

كان رأسك ثقيلًا. أشفقت عليك من طول ما حملته وحدك فوق كتفيك، رأيت بداية ترنحه فوجدت نفسي ألاحقك بكفين ممدودتين متأهبتين لتلقفه إن سقط. تخيلته يتدحرج على الأسفلت

البارد، مخلفًا وراءه دموعًا كان ينبغي لها السقوط فوق صدري أنا. كنت تضحك باستغراب واستحياء حينما تجدني أتلمَّس رأسك وأربت عليه فجأةً دون داعٍ. تنفضني عنه وتقبض على يدي ثم تبدأ في ثرثرة لا تعني منها شيئًا، ولا تبتغي منها شيئًا سوى التظاهر بالحفاظ على المسافة بيننا؛ تلك المسافة التي لم يعد بمقدورك أن تطيلها، ولا أن تسمح باختزالها أو تجاوزها.

لا أذكر معظمَ ما أخبرتك به في حديثنا الأول، عندما عدتُ إلى السكن، حاولت عبثًا إحصاء عدد الكذبات التي ارتجلتها دون وعي. لو أن كلَّ كذبة منهم هي بداية حكاية أو طريق، لكان هذا الحديث بدايةَ ألف متاهة. أنا أحب المتاهات، أضيع فيها نفسي وأهرب مبتعدةً. تطاردني وأواصل الجنوح متخففةً من ذاتي، منتشية بالإفلات من سطوة ماضٍ ثقيل وحاضر مائع. أركض مدفوعةً بجوع وعطش لشيء ما لم أكن قادرةً على معرفة كنهه، وعندما بدأت في الولوج إليك، عرفت أنه جوعٌ وعطش لك وحدَك.

في تلك الليلة، اقتنصتُ منك صورة أزعجتك، ومنحتني من الفرحة ما جعلني أتقافز في الطريق كالبلهاء. عرجت على عم خليل المصوراتي، وأخبرته أن استمراري في وظيفتي متوقِّفٌ على تحميض هذا الفيلم الآن. لم أتمكن من الانتظار للصباح؛ أخبرني أنني استخدمت أقلَّ من نصفه، فافتعلت بكاءً يعفيني من تأليف مزيد من الحكايات والانخراط في حديث لا طاقة لي به الآن. حملت الصورة وعُدْت إلى غرفتي في السكن، كن نائمات،

والمصباح الأصفر المغبَر في السقف منطفئ. لم أدخل، قرفصت على أرضية الرواق ورحت أتأمَّل صورتَك تحت الضوء الشحيح لهلال وبضعة نجوم. بعدها لم أقدرْ على لصق الصورة على جدار لا أملك فيه سوى مترين. لصقتها على ظهر غلافِ أحد كتبي. وفي الأيام التالية صارت كل الكتب تحملك في صدرها.

ظلت الصور تزعجك، وظللت أتجاهل انزعاجك وأدافع عن حقي الصغير في الاحتفاظ ببعضك بعد أن أغادرك.

عندما بدأت أبوابك الصلبة في المواربة، لاحظت أنك تتخطى كلَّ ما يمت لقريتك بصلة. وبعد أن اطمأنت عيناك أخيرًا واستشعَرْت الأمان في إطالة النظر إلى عيني، وجدتها تضطرب فجأةً وتتحاشاني إن تصادف ذكر قريتك في حديث، وكأن تذكرك لبلدتك وبيتك يعريك ويكشف منك ما تحرص على ستره. أخبرتك مرة أنني أتمنى زيارة ميدوم لأتعرف على عائلتك، ولألتقط صورًا للمنطقة الأثرية هناك، حينها ابتسمت، ثم أطرقت، ثم تجاوزت كلامي وكأنك لم تسمعه، لتعود وتدير دفة الحديث نحو نشاط الحزب ورفاقك المعتقلين والثأر الآتي لا محالة. هل كان يخطر لك حينها أنك تهرب من بيتك نحو زنزانتك، من أهلك إلى سجانيك، من أبيك إلى جلادك!

كانت غضبتك مرعبةً حينما قلت لك كلامًا مشابهًا. رأيت في وجهك ملامح رجال آخرين، وصوتك الحبيب احتلَّه نشاز مخيف. اتهمتني بالجهل والغباء والانفصال عن واقع البلد، هاجمت وهجوت كل ما أخبرتني قبلًا أنك تحبني لأجله! لم أقدر على

الرد. أحسست بافتقاد موجع لك، فبكيت، وأنت لملمت أشياءك وأسرعت الخطى مبتعدًا عني.

وقفت وحدي بأطراف مثلجة وفك مرتعش؛ وكأن ألف ميل يفصل بيني وبين كل شخص وشيء حولي. تضببت كل الأشياء، ومن وسط الضباب كان جسدك الخالي منك واضحًا حادًّا يُجتث من المشهد، فركضت تجاهه وتبعته كظل عاجز عن الهروب من صاحبه.

سرت جوارك صامتة في عشرات الشوارع، كنت أضبط سرعة مشيي على سرعتك، وبعد أكثر من ساعة، عندما أوجعتني قدمي ولم أقدر على مجاراتك؛ أبطأتُ، فوجدتك تفعل المثل، وتضبط سرعة مشيك على بطئي. لم تلتفت نحوي ولم ألتفت نحوك، لم تتفوَّه بكلمة، ولم أتفوه أنا. زرنا مكتبة وركبنا ترامًا، ابتعنا جبنًا وخبزًا من البقال، وبعد أن أنقدناه، تراجعت أنت نحوه واشتريت زجاجتَي (بيبسي). أمسكت واحدةً ووضعت الأخرى مفتوحة على الرَّف، فضحكت وشربت، وأنت أشحت بوجهك بعيدًا بعد أن لمحت في عينك طيفًا لابتسامتك الحبيبة.

عاودنا المشي، فوجدتك تنعطف في الطرق المؤدية للسكن. وعندما وصلنا توقَّفت. لم أتمكَّن من مواصلة غض بصري عنك، وأنت أطلت الوقوف أمامي كتمثال لا يبادلني النظر؛ لكن ملامح وجهك عادت إلى سابق عهدي بها. أحسست بالثقل في رأسك، مددت يدي وتلمست شعرك بأطراف أصابعي، فنفضتني كعادتك؛ لكنك لم تتمكن تلك المرة من إشاحة وجهك عني.

أذكر تلك النظرة في عينيك، طفل يستغيث خلف وجه رجل خشن بعينين قاسيتين؛ لكنها قسوة لم أصدقها قط.

تمنيت أن تبقى حينها إلى الأبد؛ لكنك رحلت مسرعًا، وأنا بقيت بصدر مفتوح على مصاريعه، وروح مكشوفة، تتواثب خلفك.

هكذا كنا يا جلال.. أتذكر؟!

ها أنا ما أزال واقفة وحدي بصدر مفتوح، وروح مكشوفة، يتيمة كظل قُدِّر له البقاء وحيدًا معذبًا بعد اختفاء صاحبه.

كان طريقًا قصيرًا ذاك الذي سلكناه معًا، ذكرياتنا رغم قلتها تشبه أبيات رياض الصالح: «حارة كجمرة، بسيطة كالماء، واضحة كطلقة مسدَّس!»

طريقنا القصير يبدو الآن نقشًا متناهي الصغر؛ لكنه موشوم في روحي وصدري وذاكرتي.. قطرة مركزة وكثيفة وفواحة كروح العطر.

كانت رحلة قصيرة رافقتك فيها قبل أن يلتهمك المعتقل، وعندما خرجت؛ لم تكن أنت. عرفت هذا منذ اللحظة الأولى التي استقبلتك فيها... لم تكن أنت..

أردت أن أركض بحثًا عنك؛ لكن إلى أين... إلى أين؟

أسوار السجن الحربي عالية وصلبة ومغلَقة، وكذلك صرت أنت. كان عليَّ أن أركضَ؛ إلى داخلك ربما. وددتُ لو أفتح صدرك وأعبره إليك. أن أقتحم عليك رأسك لأستأصلَ ذاكرتك القديمة من وسط هذا الضباب الرمادي المخيف. أحتضنها وأجالسها

وأتشارك معها حديثًا طويلًا بلا نهاية. تمنيتُ لو أنتشل نظرتك إليَّ من شرودك الدائم وتيهك. حَاولت؛ حاولْت كثيرا؛ لكن ما فقدته هناك ظل هناك، وما فقدته كان أنت.

أَتَذكُر طقوسَ الوحدة التي كنا نمارسها معًا؟ عندما فهمت أنك رجل يُقدّس عزلته، فأخبرتك أنني سأشاركك وحدتك وأتقاسمها معك بحب وخشوع. تجمعنا ساعات وأيام من الصمت، يتظاهر كل منا فيها بأنه لا يراقب الآخر. ألتقط لك صورًا وكأنك لا تلاحظ، وتتلصص على ما أكتب وكأنني لا ألاحظ، حتى أكتب لك على طرف الورقة: «أحبك، وأوحشتني»؛ فتبتسم وتبتعد، وأبتسم وأبقى...

الآن نتقاسم صمتًا مختلفًا، خاويًا وقفرًا وموحشًا. لم تعدْ تضمُّنا وحدةٌ واحدة، بوابة زنزانتك التصقت بروحك وخرجت معك من المعتقل. شطرت عزلتنا الوديعة إلى جحيمين متجاورين، متواريين؛ كُلٌّ خلف حجاب.

لو تعلم كم هو مؤلمٌ وجودك بقربي وأنت مفرَّغ منك، كم افتقدتك وبكيت على كفِّك المفرودة التي لم تعدْ قادرة على القبض على أي شيء حتى يدي. توسلت إليك لتمسكها حتى لا تسقط؛ لكنك عجزت عن هذا وسقطت، وأنا لم أكف عن التساؤل في كل لحظة كالمجاذيب: أين أنت الآن يا جلال؟

أين أنت؟!

(5) جلال

عندما بدأتُ في ملاحظة عينيها الكبيرتين تلاحقانني حتى من خلال شقوق النوافذ المغلَقة لقاعات المحاضرات، استعدت رغمًا عني ذكريات كنت قد بذلت جهدًا مضنيًا في تناسيها وتخطي آثارها. الحياة في قرية صغيرة تشبه حياة العصافير في حدائق الحيوان. مساحات محدودة للطيران، حياة كاملة عارية أمام الجميع. يضحكني كلام البعض عن احترام أهالي الأرياف لحرمة البيوت، يبدو الأمر في الحقيقة كنكتة سخيفة، في قريتنا الأبواب مفتوحة على الدوام، والجدران شفافة، وتفاصيلنا الصغيرة معروضة على حبال الغسيل مع ملابسنا الداخلية.

لم يصدقني أبي حينما أخبرته عن تلصّص الناس عليَّ من النوافذ. قال إن لا أحدَ يجرؤ على فعلة مماثلة في بيت العمدة، ثم إن أخلاق أهل القرية تحول دون القيام بهذا من الأساس!

كانت جدتي تقول إنني ملبوس بجني سفلي، من طول ما تركني أبي أصرخ وحيدًا في غية الحمام الحالكة الظلمة. كانت طريقته الوحيدة في معاقبتي على أي خطأ مهما بلغت تفاهته، الحبس في الغية المظلمة.

أقضي الليل مذعورًا بين عيونهم الماكرة الصغيرة، وأصوات رفرفة أجنحتهم التي لا تفتأ تباغتني كلما أوشكت على النوم. تطير

إحدى الحمامات فجأة مصطدمة بوجهي فأسقط أرضًا وأحاول حماية رأسي بين ذراعي، كجنين في رحم الشيطان.

كرهت الحمام بعدها، وكل ما يمتلك أجنحة. كرهت الظلام والوحدة والناس.. كرهت البيت.

ولهذا كانت سنواتي في جامعة القاهرة هي أفضل ما مررت به في حياتي، بعيدًا عن قفص العصافير الكريهة في قريتنا. لم أشأ لفترة دراستي أن تنتهي، فتعمدت الرسوبَ والتنقل من كلية إلى أخرى لأتمكن من الهروب لأطول وقتٍ ممكن.

لكن عينيها الغريبتين بعثتا من ذاكرتي كل هذا. استجمعت كل ما أملك من شجاعة، وما تمكنت من ادعاء امتلاكه، ومشيت إليها لأفهم. سألتها مباشرةً ودون مقدمات عن هويتها، وعن سبب تلصصها المريب عليَّ. تخيلت أنني في تلك اللحظة سأرى جناحين ينبثقان من كتفيها، لتتحولَ إلى حمامة دميمة، تطبق عليَّ منقارها وتطير بي إلى غية الحمام في ميدوم؛ لكنني أدركت مدى سخافة الفكرة حينما بدأَت في التحدث. كانت لطيفةً جدًّا وثرثارة؛ بل أكثر شخص ثرثار قابلته، بدرجة جعلتني ألاحظ ببساطة التناقض الواضح في حكاياتها، فلا يمكن لأحد أن يعيش كل تلك التفاصيل.

مئات الآباء ومئات البيوت؟!

كانت تسير بجواري في شوارع القاهرة القديمة وتشير إلى النوافذ هنا وهناك، قائلةً إنها عاشت خلفها لأيام أو أسبوع أو شهر قبل أن تنتقل إلى بيت جديد. وتقص عليَّ حكايات أصحاب هذه

المنازل وتفاصيل دقيقة عن حيواتهم، وحينما اتهمتها مرة بالكذب، ردت بأكثر المبررات سخافة على الإطلاق:

«إن أخبرتك حقيقة ما عن نفسي، فحينها فقط سأكون كاذبة؛ لأنها ستتغير بمجرد حلول صباح اليوم التالي. ما أقوله لك هو الحقيقة بالنسبة إليَّ. لماذا ترغب بهذه الدرجة في مقارنته بورقة ما أو بكلام شخص آخر؟ أنا هنا معك بكُلِّيتي، ماذا تريد أكثر؟»

ما الذي يتغير كل صباح يا آفرين؟ الماضي لا يتغير أبدًا، ليتني أستطيع فعل هذا، ليتني أستطيع إلقاءه برمته في قبر عميق، نردمه معًا ونرقص فوقه بفرح السذج العميان وسط المذبحة؛ لكنني لا أستطيع.

كان انفصامًا غريبًا هذا الذي أحدثتِه في أفكاري ومشاعري ومذهبي في الحياة. في البداية كان كذبك يغضبني، ثم اعتدته، ثم تسليت به، وفي النهاية أحببته وأحببتك. لم أقتنع بأيٍّ من حكاياتك الغرائبية وأفكارك الصوفية الساذجة؛ لكن الطفل الصغير القابع في أكثر الأماكن وحشةً وظلمة في عقلي، تغافل عن خداعك الجميل، وتعلم ولأول مرة كيف يمكن ممارسة فرح الصغار وبلاهتهم البهيجة، وكيف يمكن لهذه الممارسة أن تغير العالم، أو على الأقل تصنع عالمًا موازيًا يخصنا نحن، عالمًا رفيقًا أليفًا... مثلك.

لم تعُدْ عيناكِ تثير في عقلي ذكرى العيون القديمة؛ بل صرتُ أهرب في اتساعهما من ضيق الحياة والبلد وأرواح الناس المغلَقة. انصهرت رهافتك مع هشاشتي، ثم تماسكا معًا مكونين صفة أخرى

اتصفنا بها معًا. لم نجد الكلمة المناسبة؛ لكنك أخبرتِني ذات مرة أنها تشبه صوتي، قوية رفيقة؛ كالتشيللو.

كانت رحلتنا معًا قصيرة. أتذكرها الآن كالحلم، وأنا ملقًى على أرض الزنزانة الأسمنتية أمام أحذية الضباط، غارقًا في القيء والبول ورائحة السجائر. أذكركِ كحلم ربت على خيال طفل نائم في غية حمام، طفل متكور على نفسه كجنين في بطن الشيطان.

ابنة العالم وأمه؟!

عن أي عالم كنت تتحدثين يا آفرين؟ فلتذهب كل أحلام الصغار إلى الجحيم؛ إلى الدرك الأسفل من الجحيم. فلتشتعل وتتفحم هناك، ربما يُوفّر لنا دخانها بعض الدفء على أرض الحقيقة الباردة، حيث تتجمد أجزاؤنا تباعًا حتى تضمر وتتساقط.

أتعلمين؟ في البلاد الدافئة، يبتلع التراب الموتى برفق. يتغذى على بقاياهم ليعيد تدوير الموت، فينبت حياة جديدة.

ونحن بلادنا رغم دفئها مثلجة؛ روحها مثلجة، وفي الثلوج، أشلاء الموتى لا تغذي الأرض، فالأرض ذاتها مقتولة. لا يتحلل شيء ولا يعاد تدوير شيء. تتوقف دورة الحياة حينما يعلق الموت في حلق الثلوج، ويظلُّ منحشرًا فيه إلى الأبد. تظل الجثث محدِّقةً فينا، تراقبنا من أسفل. نمشي فوقها رغمًا عنا لتستمرَّ الحياة، ندعس وجوهَها الزرقاء أثناء خطونا نحو المستقبل. وفي كل الصور؛ إذا ما نظرتِ إلى الأسفل قليلًا فستجدينهم تحت أحذيتنا؛ عالقين في برزخ عبثي غير مفهوم.

عالقين مثلي؛ ليس كجنين في بطن الشيطان؛ لقد كنت كذلك هناك في الخارج...

أما الآن...

الآن، وعظام وجهي تكاد تتفتت بين أرض الزنزانة الصلبة وحذاء أحد الضباط؛ الآن، وصوت صراخ رفاقي وبكاؤُهم يدوي في أرجاء المكان متخطيًا الأبواب والجدران وأجساد الحرس...

الآن، أنا متأكد من أن الشيطان قد قذفني من بطنه مباشرة في جهنم...

أنا الآن في جهنم يا آفرين...

في الدّرك الأسفل من جهنم!

(6) نعمات

أقف مع جميل في الصالة. أكاد أتهاوى من الفزع، وهو يحدق فيهما صامتًا. لساني يعجز عن السؤال، فأمد يدي لألمس ذراعه علَّه ينطق بشيء ما. هو يفهم ما لا أفهمه؛ هكذا كان طوال الثلاثين عامًا الماضية. والآن عليه أن يشرح، عليه أن يتصرف، عليه أن ينقذنا.

أواصل النظر ولا أفهم. جثة (البيه) مسجاة على الأرض، وبجوارها عمر متكورًا على نفسه كجنين، ومن بين بطنيهما تمتد العصا. يحيط بهما هشيم طوب منتزع من الحائط، ومرصوص حولهما على شكل حلقة بيضاوية مغلَقة. أشم رائحة الموت؛ لكن عينَيّ عمر المفتوحتين والحركة في صدره تؤكد لي أنها ليست رائحته هو. أخطو نصف خطوة ثم أتراجع، وأعود أستجدي من جميل كلمةً واحدة تطمئنني؛ لكنه يواصل الصمت.

رغم كل ما مررت به في حياتي، كانت تلك هي اللحظات الأثقل على الإطلاق، الأكثر رعبًا وإيلامًا؛ لكن جميل قطعها بخطوات حذرة إلى داخل الحلقة. لم يلتفت لـ(البيه)، جلس أرضًا بجوار عمر، كشف على أنفاسه وعينيه، فتح فمه وخبط على خده وتحسس صدره، ثم حملق في البول الطافح على بنطاله. وبعد كثير من الوقت والصمت والذهول نهض وغادر الصالة، وبطرف إصبعه أشار إليَّ لأتبعه، ففعلت وأنا أُفكِّرُ بصوتٍ مسموع كالمجانين:

«هو يعرف الحل... جميل دائمًا يعرف الحل!»

***

«مسكين عمر.. الوضع معقَّدٌ جدًّا يا نعمات، لن أخفي عليكِ هذا، لن نستطيع إخبار الحاج أبو جلال بالأمر، وأظن أنكِ تعرفين السبب جيدًا!»

السبب؟ أشعر أن شللًا ما أصاب عقلي؛ لا أستطيع التفكير؛ حسنًا!

السبب هو أن ما يعرفه الباشا عن ابنه وحفيده ليس سوى ما أخبره به جميل. هو لا يعرف شيئًا عن تدهور حالة جلال، ولا عن الحياة الغريبة التي عاشها عمر، ولا عن مرضه. هو حتى لا يعرف شكله. هذا هو الاتفاق الذي عقده معي جميل عندما بدأت هلوسات عمر في توقيت التحاقه المفترَض بالمدرسة نفسه. أخبرني أن أي مدرسة لن تقبلَ به وهو بهذا القدر من الغرابة، وأن أباه سينهار تمامًا ويخرج عن السيطرة إذا فاتحَه أحدٌ في موضوع مماثل. هو لم يقبل حتى أن يخرج الولد من المنزل لتلقِّي تطعيماته، فهل سيقبل أن يصير طالبًا يتردد يوميًّا على مدرسة؟ ثم أين هي أوراقه الرسمية؟ الولد ساقط قيدٍ بلا شهادة ميلاد، وقد كانت تلك المرة الأولى التي أنتبه فيها لهذا الأمر.

وبعد أن تراجعت عن فكرة إلحاقه بمدرسة، أخبرني في مكالمة لاحقة، أن الباشا خصَّصَ ميزانيةً ضخمة لتعليم الولد في مدارس لغات، وأن هذه الهدية من الله لا يحقُّ لنا ردُّها.

هدية؟!

لم أفهمْ عن أي هدية يتحدث؛ إلى أن شرح لي وبمنتهى الوضوح أن تلك المبالغ الطائلة لن يتمكن عمر من الاستفادة منها أبدًا، فهو مجنونٌ كأبيه، والباشا يعلم هذا في قرارة نفسه، هو فقط يريد تبرئة ذمته، والتكفيرَ عن ذنب هجره لهما. الرجل ببساطة لا يريد أن يكونا في حياته. لا يريد أن يسمعَ أي شيء عنهما. فليغترفا من أمواله ما يشاءان، مع الاحتفاظ بالخطِّ الفاصل بين عالمه وعالمهما؛ لكن الحقيقة أنني وهو وعمر وجلال في العالم ذاته، في الحفرة نفسها؛ على حدّ قوله، ولن يستطيع أن يتخذ شخصٌ آخر قرارات تخصنا نحن. ولهذا سنأخذ المال وننفقه بما يتناسب مع احتياجاتنا (نحن).

كان الاتفاق أن يمنحني مصروفًا شهريًّا منفصلًا عن راتبي الزهيد، وما يتبقى من المال، سيوجهه لتعليم ابنه في مدرسة لغات كبيرة!

وعندما تجرأت وطلبت منه أن يقتطع مبلغًا أكبر يمكنني إيداعه في البنك لتأمين مستقبلي، ضحك، وذكَّرني بأنني أنا الأخرى لا أملك أوراق إثبات شخصية. أنا قانونًا ميتة، والأموات لا يحق لهم إيداع الأموال في البنوك.

والآن بعد تلك المصيبة، إن عرف الباشا بموت ابنه ربما يتلطف ويفكر في استدعاء حفيده وتعويضه عن فقد أبيه. لقد كان جميل يرسل للرجل صور ابنه هو في حفلات المدرسة والتخرج والبطولات الرياضية، باعتبارها صور عمر! هو يعتقد أن عمر شاب

وسيم متخرج في الجامعة الأمريكية، وحامل ميداليات بطولات الجمهورية في الجمباز. ماذا سيفعل إذا رأى عمر الحقيقي؟ ماذا سيحل بنا؟ ماذا سيحل بي إذا عرف أهلي في ميدوم أنني حية، وكنت أعيش طيلة ثلاثين عامًا في بيت غريب، في بيت الفاجرة؟ سيقتلونني، ولن أتمكن من الهرب من دون أوراق إثبات شخصية. ماذا أفعل يا الله؟!

«أخبريني فيم تفكرين يا نعمات؟ أنت تعلمين أنني دومًا أملك حلًّا لكل مشكلة. في الحقيقة أنت أكثر ما يثير قلقي الآن. جلال مات واستراح من عذابه، وعمر مهما تعاطفنا معه فلا يجب أن ننسى أنه مُغيَّبٌ كأبيه. هو لا يشعر مثلنا، ولا يفكر مثلنا. أعرف أن هذا الكلام يزعجك لكن أؤكد لكِ أنه ليسَ أكثر من قطة ربيناها في بيتنا. قد نحبها ونشفق عليها ونخدمها؛ لكننا لا ينبغي أن نتأذى بسببها أبدًا؛ لأنها كائن غير عاقل؛ مثله تمامًا. ستكون التضحية بأنفسنا لأجلها سخافةً وحماقة كبيرة».

لكنني بالفعل ضحيت لأجلك يا عمر؛ ضحيت بكل شيء. أمك دمرت حياتي، وبدلًا من الانتقام منها ومنك، ربيتك كابني. لو أن تلك الملعونة لم تتدخَّل في حياتي لكنت امتلكت أطفالًا في مثل عمرك وأكبر؛ لكن عائلتكم سرقت حياتي. صرت ميتةً باعتراف الحكومة، لا يحق لي حتى الزواج برجلٍ محترَم، بعقد موثق. لم أتزوج عند مأذون، كان الزواج العرفي هو الحل الوحيد، ولم يكن ليقبل بي أي رجل سوى البواب المقرف في العمارة المقابلة.

عشت نصف حياتي في غرفةٍ واحدة معه هو وزوجته وابنتيه، ونصفها الآخر معك أنت وأبيك. كرهتهم وكرهتكم وكرهت نفسي. لكن لا، أنت تعرف أنني أحبك يا عمر، وأنني كنت أُمًّا صالحة؛ أنت تعرف هذا.

«أنا أفهمك يا نعمات. صدقيني؛ لا يمكن لشخصٍ على وجه الأرض أن يشعرَ بكِ سواي. لقد أفنيتِ حياتك في خدمتهم، وليس من حقهم أن يفسدوا ما تبقى منها. كلٌّ منهم كان يبحث عن مصلحته ولا شيء سواها، ولن أكذب عليكِ، أنا أيضًا أفكر في مصلحتي، وهذا ليس عيبًا ولا حرامًا. الحرام هو أن نهدر حياتنا والفرص التي يهبها لنا الله –سبحانه وتعالى– لأجل من لا يستحق.

حتى آفرين، هل تعتقدين أنها كانت تستميت في خدمة جلال حبًّا فيه؟

حسنًا؛ سأخبرك بمفاجأة...

تلك المرأة لم يكن اسمها آفرين، ولم تكن مغربية. كانت فتاةً مصرية فقيرة تتعيش على (ملاليم) من التصوير في صحفٍ مغمورة، وجلال لم يتعرَّف عليها في المغرب، هو لم يغادر مصرَ من الأساس طيلة حياته. لقد كان معتَقَلًا، ولم يشأ أبوه أن يعرفَ أهل القرية بالأمر، فاختلق قصةَ سفره إلى الخارج. هل أخبرك بما هو أكثر؟

كانت لقيطة، (بنت حرام) يعني؛ تربت في ملجأ وخرجت منه بفضيحة تحرّش.

لماذا أخبرك بهذا الآن؟ لتعرفي أنه حتى تلك التي اعتقد الباشا أنها تخدم ابنه محبةً فيه وإخلاصًا له، لم تكن سوى فتاة رخيصة تبحث عمن يؤويها.

أخبرك بهذا الآن لتفهمي كم هو أحمق وغبي، ولا يستحق أن يكون متحكّمًا في تلك الأموال الطائلة؛ لأنه يمنحها لمن لا يستحق. وهذا هو الوقت المناسب تمامًا لتصحيح كل تلك الأوضاع».

أجل، كنت أعرف يا آفرين أنكِ ملعونة؛ غضب الله كان ظاهرًا على وجهك، وتبعتك لعناته أينما ذهبتِ. لقد استحققتِ الموت حرقًا، لم يكن عقابًا مبالغًا فيه كما ظننت.

لقد كنتُ غبية، طوال عمري وأنا غبية... أزرع في غير أرضي، في أرض فاسدة عفنة.

«ثم كيف لنا أن نتأكَّدَ من أن عمر ابن جلال؟»

يا إلهي!

هل يمكن أن يكون هذا حقيقيًّا؟

لقد شككت فيها منذ بداية حملها؛ لكن الصغير خطف قلبي منذ رأيته أول مرة، فتناسيت كل تلك الشكوك.

«أعرف أنك فكرت في الأمر من قبل؛ لكنكِ أحببت الولد؛ لأنك أم بالطبيعة، وبنت أصول؛ لكن دعيني أسألك الآن: هل بادلك عمر كل هذا الحب؟»

لا يا عمر، أنت لم تحبني قط، كنت كالكلب المريض تحت قدمي أبيك، وكلما حاولت مساعدتك ازداد نفورك مني.

«حسنًا يا نعمات، الوقت يمر، ولا يمكن أن ننتظر أكثر. علينا أن نتخذ قراراتٍ مهمة وبسرعة، قرارات سيترتب عليها كل ما سيحدث في حياتك لاحقًا.. لن يمكننا أن نخبر الباشا بموت جلال!»

«وماذا سنفعل في الجثة؟»

«سنبقيها هنا، أنا سأتولى هذا، لا تفكري في الأمر!»

«وعمر؟!»

«عمر؟ المجنون ابن الحرام؟ الذي ولدته امرأة بنت حرام مثله؟ الملعون ابن الملعونة؟ مشكلتك يا نعمات أنك طيبة القلب؛ لكن أخبريني، إذا مرضت قطتك وجُنَّت وأصابها السعار، ماذا ستفعلين بها؟ ألن يكون القتل الرحيم هو الحلَّ الأكثر رفقًا بها وبكِ؟»

«هل جُنِنت؟ تريد أن نقتلَ عمر؟! مستحيل أن أقبل بهذا!»

«أنا لست مجرمًا يا نعمات، أنا رجل يتقي الله في كل أفعاله، يستحيل أن ألوِّث يدي بدماء أيٍّ كان، ولماذا نقتله من الأساس؟! يمكننا أن نستفيدَ منه بطريقة لن تخطر على بالك أبدًا.. يمكننا بيعه!»

جميل يملك حلولًا لكل المشكلات، أعرف هذا، لماذا إذن يبدو كلامه بهذا القدر من الجنون؟ نبيع عمر؟! لقد فقَدَ عقله.. بالتأكيد فقد عقله!

«حسنًا؛ أعرف أن كلامي صعب الفهم، ومزعج، ومخيف؛ لكن الحياة يا نعمات صعبة الفهم ومزعجة ومخيفة. لست أنا من خلق هذا القبح، القُبح موجودٌ قبل أن نُولَد أنا وأنتِ وآباؤنا. نحن فقط ندافع عن أنفسنا ونحميها منه.

سأشرح لكِ الأمر بأبسط طريقة ممكنة. لقد خلقنا الله مختلفين يا نعمات، لسنا سواسية كما يقول الأغبياء والمنتفعون. إنها سنة الله في خلقه، أن يخلق الذكي والغبي والغني والفقير والصحيح والمريض.

لكل إنسان دوره في هذا العالم، ولا يمكننا إنكار حقيقة أن بعض الناس لا يستحقون حتى الماء الذي تمنحهم إياه الأرض والسماء. عندما نزل الإسلام لم يُحرِّم بيع العبيد. لو كان شرًّا وفعلًا منافيًا للفطرة -كما يدعون- لما أحلَّه الدين. وعمر الآن سلعة ثَمينة؛ ثمينة جدًّا يا نعمات..

أعرف أن ما يسميه الإعلام اتجارًا بالبشر صار مرادفًا في ذهن الناس لتجارة الأعضاء مثلًا، أو استغلال النساء؛ حاشا لله؛ لكنك تعرفين تمام المعرفة بأنني رجل يخاف الله، ولا يمكنني أن أرتكب مثل هذه الجرائم أبدًا، مهما كانت المغريات.

الأمر أكبر من هذا بكثير وأكثر تشعُّبًا. في هذه السوق، كل فرد له قيمة وسعر، والقيمة هنا ذات معنى مختلف تمامًا عن معناها في حياتنا نحن. وعمر من القلائل الذين يمكن تصنيفهم في الفئات الأعلى سعرًا وقيمة».

«لا أفهم... لماذا؟»

«باختصار شديد: لأنه فاقد للأهلية، وساقط قيد. صفتان إذا ما اجتمعتا معًا تحولان صاحبهما إلى ذهبٍ حي. هل فهمتِ؟ هذا شخص يمكن أن يفعلَ أي شيء؛ أي شيء، دون أن يُخلِّفَ وراءه

أثرًا واحدًا. عمر شبح، هو أمام الحكومة شبح، بلا اسم ولا بصمات ولا إرادة ولا عقل، ومن الناس من هم أهلٌ لامتلاك أشباح مماثلة، لتساعدهم في أمور لن يتمكن سواهم من القيام بها».

«جرائم؟ كالقتل؟»

«عزيزتي، تاجر السلاح لا يستجوب كلّ شخص يشتري منه مسدّسًا ليتأكدَ من صفاء نيته وطيبته، وبائع الأدوات المنزلية لن يُسأَل عن شخص طعنَ آخر بسكين اشتراه منه...

كل ما أعرفه أن فاقد العقل والهوية يُباع ويسعَّر بالذهب، لن يعنيني ما إذا استخدمه مالكه في شغب أو اغتيال أو مظاهرة، كلنا سنأتيه يوم القيامة فردًا يا عزيزتي».

«حسنا؛ إذا وافقت فماذا سنفعل الآن؟»

«سأخفي الجثة، ثم أعرض عمر للبيع في مزاد خاص. لن يعرف الباشا أن شيئًا قد حدث، وبالتالي سيستمر في ضخ المال، هكذا سيصبح لدينا مصروف الباشا وثمن عمر».

«ومصاريف ابنك!»

«أجل وهذا أيضًا!»

أشعر أنني توقفت عن استيعاب الكلام، لقد تعطل عقلي تمامًا، حتى إنني أحس بالصالة المجاورة ومن فيها وكأنها تبعد عني آلاف الأميال، وكأنها في عالم آخر، أو في زمن آخر.

وجميل؛ كلامه صادم ومؤلم؛ لكنه بالتأكيد يفهم أكثر مني. لقد كان ربَّ البيت الحقيقي طوال الثلاثين عامًا الماضية.

ليس جلال كما كنت أعتقد؛ بل جميل.

«هل ستعطيني نسبة من المال؟»

«صدقيني؛ أتمنى هذا من كل قلبي؛ لكن كيف ستحتفظين بها؟ زوجك سيستولي عليها ويصرفها على بناته، والبنك... أنت تعرفين؛ من دون بطاقة هوية لا بنك، ولا ملكية عقارية؛ بل لا ملكية على الإطلاق؛ مع الأسف».

«على ماذا سأحصل إذن؟»

«مصروف أكبر يا نعمات، وكل ما تحتاجين إليه».

«والشقة؟»

«سأفكر في إعطائكِ غرفةً فيها، بسرير ودولاب وتسريحة، ألم يكن هذا ما تمنيتِه طوال عمرك؟ صدقيني يا نعمات، لن يعوزك شيء بعد الآن.

ألم أعتنِ بكِ طوال الثلاثين عامًا الماضية؟

لم الخوف إذن؟»

(7) عزيز

«أين أنت يا عزيز؟!»

كان هذا هو آخر ما ظننت أنني أبصرت شفتي عمر تتمتم به، قبل أن يجاوبه جميل وهو مطرق نحوهما:

«عزيز مات!»

أراقب جثمان أبي، أو ما صار إليه بعد أن فرَّغه جميل وعالجه بالملح و«الفورمالين»، ثم حشاه وغطاه بطبقات من الجبس والإسمنت. أحدق فيه وقد صار كتلة رمادية بلا معالم ملتصقة بالجدار. وكأن عهدًا ما بينه وبين البيت قد تحقَّق أخيرًا. لقد ابتلعه، فأصبح جزءًا من بنيانه إلى الأبد.

أدور في الغرفة المغلَقة، أطفو فوق الأرض والهواء والظلام، فوق جثمان أبي المنتهَك، المسجون في رحم البناية الإسمنتية العاقر، حيث يبقى الموت موتًا إلى الأبد، لا تحتضنُه أرضٌ طيبة وتمنحه فرصة البعث والعيش من جديد في أجساد أخرى... لن تحبلَ به شجرة عملاقة، ولن تبث روحه في حكايات جديدة... لقد مات جلال موتته الأخيرة.

وأنا بعد لم أولد مولدي الأول!

أبصر عمر خلف الجدار يتكور على نفسه كجنين في بطن الشيطان. يدور حوله جميل أثناء مهاتفته لأناس لا يعرفهم؛ لكنهم

يعرفونه، يرونه من حيث لا يراهم، وما هي إلا سويعات حتى تخترق أيديهم الحوائط التي دأب أبي على تحصينها، ويجتثونه من مكمنه، ليقذفوا به في كابوسٍ جديدٍ لم يخطرَ له على بال قط.

أحاول أن أتلمَّسَ الجدار الشفاف لأصل إليه؛ لكن الزمن يراوغني وينقسم إلى زمنين، واحد لي وواحد لعمر.

يتفكك المشهد إلى مئات الصور المتلاحقة غير المتصلة، وكأنها صفحات من مجلة مصورة وسط عاصفة، ثم تتفكك الجدران إلى شظايا طافية في الفراغ، ثم أتفكك أنا إلى ذرات صغيرة شفافة، تتجمع كأسراب النحل ثم تتفرق كالغبار، وتعود لتتجمع من جديد.

أبصر العالم من موضع قدمي خارجه، ثم أقتحمه ويقتحمني في اللحظة ذاتها، أصير بعضه ويصير بعضي، نمتزج؛ نتزاوج، ثم ننجبني في خلق آخر وطور جديد.

أتلمَّسُ جسدي، وجهي، أصابعي، فأحس بما لا يقدر إدراكي على تفسيره.

أنطلق باحثًا عن مرآةٍ ولا أجد، أواصل البحث بخوف وشغف، فلا يُسفِرُ بحثي عن شيء.

«أين أنت يا عزيز؟»

أسمعها بصوت عمر تدوي من حنجرتي أنا..

ها هو جميل يُتِمُّ بناء الحائط الجديد مكان باب الغرفة المخلوع، بعد أن غطاه بالمحارة والمعجون، ثم بطلاء بلون جدران بقية الشقة؛ فاختفت الغرفة!

صارت مساحةً شبحية، تشغل حيزًا من فراغ البيت، والمدينة، والعالم. تحمل في جوفها بقايا حياةٍ كاملة قابعة في العتمة، غير منظورة، مقتطعة من مجال رؤيتهم، من واقعهم...

ولن يتذكرها أبدًا سوى اثنين: القاتل، والراوي.

في تلك اللحظة وعلى هذا الجدار رأيت الوقت، لم أعش خلاله بل رأيته مرأى العين، مشاهد لا نهائية ذرت أمام عيناي، كصحراء كاملة تفجرت، وكل حبة رمل فيها صورة من حياة. الصور لا نهائية، وأنا لست موجودا في أي منها...

«عزيز، عَزيز، أين أنت يا عزيز؟!» يصرخ بها عمر، وأهمس بها أنا، أين أنت يا عزيز ومن أنت وكيف؟

حينما انهالت عليَّ صحراء الصور طمرتني ثم ابتلعني النوم، وحينما استيقظت صحوت في جسد أبي، كنت هو، أو نحن، لا أعرف، حاولت أن أتحركَ لكن جميل كان قد غلفنا بقشرة صلبة لم أقوَ على كسرها، وفي داخلي شعرتُ بذاك الفراغ العجيب، إحساسٌ مفزعٌ أن تكونَ مجوَّفًا ومحشوًّا بالقطن والمواد الحافظة، مفرَغًا من الحياة ومملوءا بالكيماويات.

تذكرت دبدوبَ عمر المحشو بالقطن، ودماءَه التي أفزعت نعمات في لحظة شكها الأول بوجودي، لحظة انسلخت حياتي من الموت، أما الآن، هنا والآن، فقد عاد الموت ليبتلع أبي...

لكنه موت موقوف التنفيذ، تماما كما كانت حياته موقوفة ومعلَّقة.

وأنا معلَّقٌ به؛ لم أزل كما كنت دوما، ها أنا أشاركه موتته وأقتسم معه قبره، أتسلم منه ذاكرته وهرمه وطفولته. أودعهم صدري وأستسلم، أودعه قلبي وأبكي:

«أحبك يا أبي.. لا أذكر أنني أخبرتك بهذا قبلا!»

ولا أظن أني عرفتك في حياتك كما ينبغي، ولا أنت، والآن أنا بداخلك وأنت بداخلي، ربما آن لنا أن نلتقي بصورة لائقة، أنا وأنت ووحدتك وخوفك، وعندما تطول بيننا الأحاديث ستغفو الوحدة والخوف وسنبقى نحن مستيقظين، سنحتضن رأسيهما ونربت عليهما ونهمسُ فوقهما أن يطمئنا، ثم نكمل حكاياتنا دونهما.

الآن أنا بداخلك وأنت بداخلي، بعد أن أتممنا تحولنا الكامل إلى فكرة. الآن يمكنك أن تتَّكئ على روحي ونرحل معًا من هنا. سأريك جدارَ الوقت، ستشير بإصبعك إلى صورةٍ فيه وسأصطحبك إليها.

ربما نقدر على البدء من جديد، ربما لا يحدث كل ما حدث...

ربما نعثر معًا على بيت صغير يجمعنا بآفرين وعمر، بيت دافئ ومضيء، وبأبواب ونوافذ مشرعة.

*** * ***

Book Review

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك/ هنا نصغي إليك!

تواصل معنا، ونحن نسمعك!

https://www.facebook.com/alhalapublishing

alhalapublishing@gmail.com